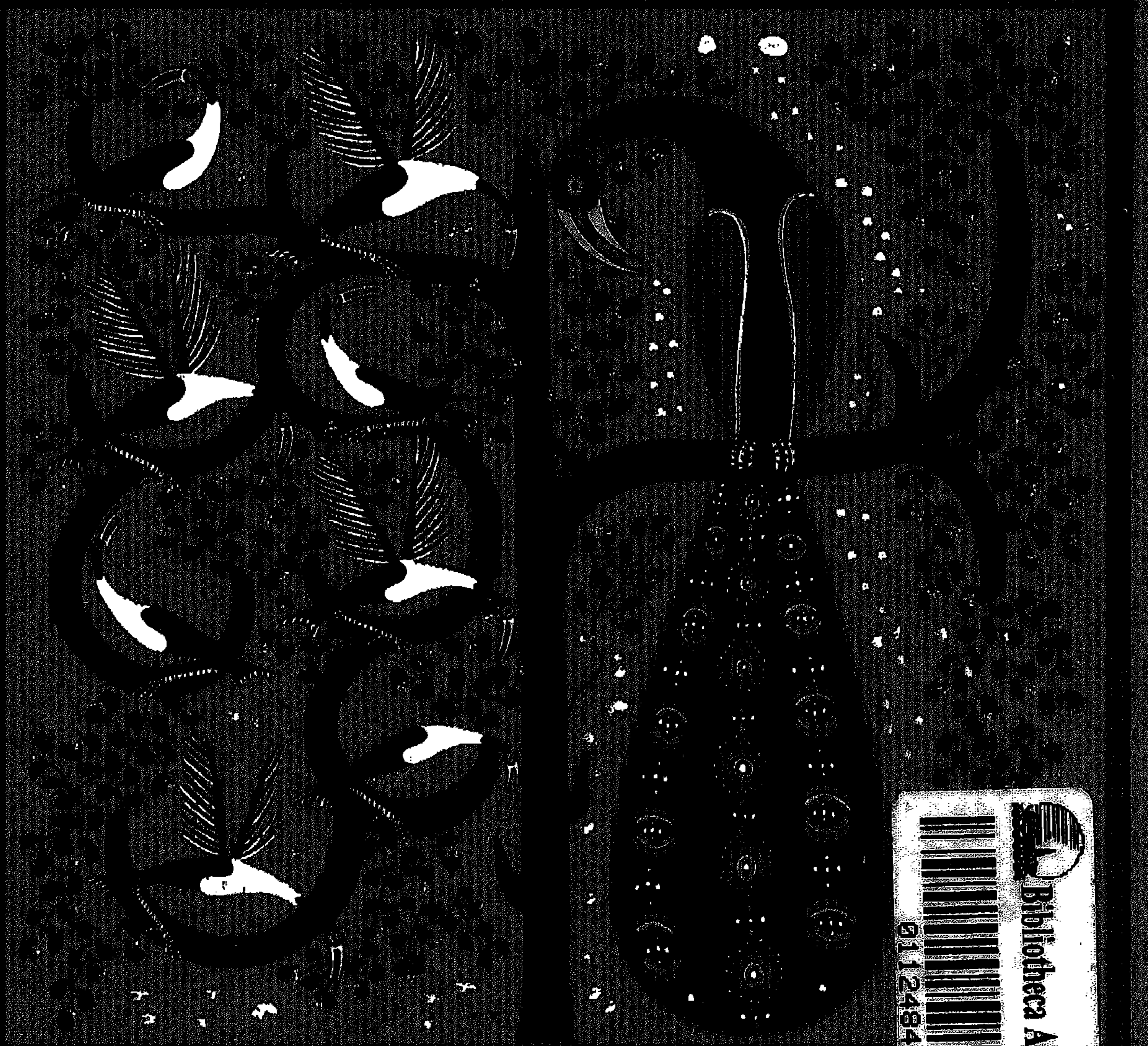


الهادي المبروك الدالي

مكتبة

أدب أفريقيا

فيما وراء الصحراء



دار صنين للطباعة والنشر والتوزيع

13338

892.709

26

11.3

13

من روائع أدب أفريقيا فيما وراء الصحراء

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف:	892.70996
رقم التسجيل:	٤٠٨٠١



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
مكتبة الإسكندرية العامة

DL

جمع وتقديم وتعليق
الهادي المبروك الدالي

الطبعة الأولى
1996

الناشر:
دار صنين للطباعة والنشر

بيروت - لبنان

المحتويات



5	مقدمة
9	الفصل الأول
11	شعر الحماسة
23	الفصل الثاني
23	الفخر بالقبيلة
25	ألوان الشعر
37	الفصل الثالث
39	الصراعات القبلية في الشعر
47	الفصل الرابع
49	شعر الرثاء
57	الفصل الخامس
57	التوسل والمديح
59	شعر التوسل
83	من ألوان الشعر الصحراوي
87	الفصل السادس
89	مدح الشامي وذمه
97	الفصل السابع
97	نماذج من كتابة الرسائل والرد عليها عند أدباء الصحراء

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الأمين،

وبعد، فقد كانت أول إطلالة لي على الأدب الأفريقي في عام 1985 م عند زيارتي لأفريقيا فيما وراء الصحراء، ولا سيما جمهورية مالي، فكانت لقاءاتي مع أدباء تلك المناطق في ليالي تنبكت وجاو المقمرة وعلى رمالها الذهبية الساحرة، سبيلاً للحديث عن أدب الصحراء وتنوع ينابيعه وأغراضه وعربيته، كما وأنه مستمد قوته من شعر ما قبل الإسلام، ومن بطولات الآباء والأجداد في هذه المنطقة من أفريقيا، فأحسست بحنين يشدني، وعزة ترقى بي إلى عنان السماء. كما توصلت إلى معلومات غاية في القيمة، تؤكد الامتداد الطبيعي والحضاري لأبناء القارة الواحدة.

وكم كنت متعطشاً لمثل هذه المعلومات، ومن حسن حظي أن جمعتني الله بنخبة من أدباء ومؤرخي السودان الغربي (غرب أفريقيا)، ففي مدينة جاو التقيت بالعالم والأديب الجليل محمد الطاهر العلوي، مدير مدرسة سبيل الإسلام لتعليم اللغة العربية والقرآن الكريم، ومدير دار معمر القذافي لجمع التراث العربي الأفريقي. ونزلت ضيفاً عليه وقد استفدت منه كثيراً ورافقني

في رحلاتي الصحراوية، التي كانت فرصة ذهبية شرح لي فيها عن كل منطقة مررنا بها.

كما التقيت في مدينة تنبكت بنخبة من أدبائها وعلى رأسهم الدكتور محمود الزبير مدير مركز أحمد بابا التنبكتي، والأديب وشاعر الصحراء عادل محمود الأرواني، الذي يعدّ أديباً من الطراز الأول اطلعت على جزء من أشعاره. إضافة إلى ذلك التقيت في باماكو بالأديب كادي درامي، فكان خير معين لي.

هؤلاء الأصدقاء وغيرهم من الأحياء حفوني برعاية خاصة على رمال الصحراء الذهبية، وتجاذبنا أطراف الحديث عن التاريخ المشترك، وأخذوا يضربون لي المثل بالقبائل، العربية الليبية والمغربية التي لها امتداد في جنوب الصحراء وجزء من أبنائها معي يمتعونني بأحاديثهم الطريفة على الامتداد الطبيعي لأبناء القارة الواحدة، ثم إلى المآثر الحضارية العربية. ويشير لي الأصدقاء بأصابعهم إلى حي الغدامسية، القريب من جلستنا الشاعرية، وإلى قصبة المغاربة، وجامعة سنكري التي شيدتها أيدٍ ليبية مغربية على الطراز المغربي الإسلامي.

كم كنت فخوراً بهذا الامتزاج الحضاري وحزيناً في نفس الوقت، على هذا الانقطاع بين أبناء القارة الواحدة، ذات التاريخ والعادات والتقاليد المشتركة، وكم تمنيت في قرارة نفسي أن يعود بي الزمن إلى الوراء قليلاً لأتأمل، ولو للحظة واحدة تلك الفترة الزاهرة من تاريخ هذه القارة.

إن أفريقيا بكر للدراسات، سواءً كانت تاريخية أم أدبية أم علمية، فهي لم تحظ من قِبَل أبنائها بدراسات معمقة اللهم، إلا شذرات لا تشفي غليل الباحث، وتراثها الثقافي تلتهمه أرضة الأرض في بيوت أهلها المبنية بالطين دون أي اكتراث من قبل حكامها وأبنائها! ورجل الصحراء يبحث عن قوته اليومي في ظل الفقر الذي فرض عليه، ولا وقت له للبحث عن التراث

الثقافي، الذي يضيع يوماً بعد يوم. وبالرغم من المحاولات الجادة لمركز أحمد بابا التنبكتي بمدينة تنبكت، ودار معمر القذافي لجمع التراث العربي الأفريقي بمدينة جاو، إلا أن حجم العمل أكبر من ذلك، فالإمكانات المتواضعة لهذين المركزين غير كافية للنهوض بالواجب المنوط بهما.

والدارس للتراث الأفريقي يلمس حقائق تؤكد أصالة وامتدادات الشعوب الأفريقية واتصالها ببعضها، والتاريخ والعادات والتقاليد المشتركة، فلا نلمس فرقاً كبيراً في الأدب الشعبي الليبي والمغربي عما هو موجود في جنوب الصحراء، فالإيقاع واحد والكلمات تحمل نفس المضمون وإن اختلفت المقاصد، والذي يتغنى به الشاعر الليبي يتغنى به شاعر تنبكت وجاو وجن واقدز وكانم ويرنو.

وربما نجد في اصطحاب الملك منسا موسى ملك مالي في القرن الرابع عشر الميلادي للمهندس الليبي عبدالله الغدامسي وبناءه بصحبة المهندس أبي إسحاق الساحلي جامعة سنكري على الطراز المغربي الإسلامي، ووصول المهندس الليبي عبدالله الغدامسي إلى أرفع المناصب لدى سلطان مالي بأن أصبح مستشاره الأول، ما هو إلا دليل على مكانة العرب الليبيين في نفوس حكام وأبناء جنوب الصحراء، وما كان عليه هؤلاء من الحكمة والعلم والدراية حتى أصبحوا مستشارين لهم.

بالإضافة إلى ذلك إسلام ملك غانة الوثني ورعيته على يد الداعية العربي الليبي علي بن يخلف النفوس عام 1157م دليل آخر على عمق الصلات، وتبحر أبناء ليبيا في العلم وقدمهم من بيئة ذات حضارة زاهرة، كذلك دراسة الحسن الوزان المعروف بليون الأفريقي والذي يُعد كتابه وصف أفريقيا أعجوبة عصره، وبواسطته دخل الأوروبيون إلى غرب أفريقيا في القرن الخامس عشر الميلادي، ولجهلهم كانوا يطلقون عليها القارة المظلمة، كانت دراسته الأولى في فزان بليبيا.

إن كل الشواهد الدامغة على الامتداد الطبيعي لأبناء القارة الأفريقية المسلمة تدحض افتراءات الأوروبيين المستعمرين ومحاولاتهم طمس هذه المعالم زاعمين أن سبب تأخر الأفارقة هم العرب. ولكن كلمة أقولها: نحن أبناء هذه القارة يربطنا مع بعضنا تاريخ وعادات وتقاليد ولغة، فأربعون في المائة من اللغات الأفريقية: الفلانية والهوسا والسوحلية عربية المفردات، وعلى ذلك فلسنا دخلاء على أفريقيا، فأفريقيا للأفريقيين ولا حلف لأفريقيا إلا مع نفسها.

إن هذه الدراسة التي بين أيدينا تدرج، ضمن سلسلة من الدراسات التي أقدمها عن منطقة غرب إفريقيا. فهذه أشعار لأدباء أفارقة كتبوها باللغة العربية، منهم من ينحدر من أصول ليبية، وهي تؤكد عمق الترابط الحضاري وتجذر اللغة العربية بين أبناء تلك المناطق، فالعروبة أسبق من الإسلام هناك.

وأستسمح القارئ إغفالي المتعمد لأحد فنون الشعر الصحراوي الذي هو الغزل لحاجة في نفسي.

وكلمة أخيرة أقولها للشباب الأفريقي: يا شباب أفريقيا الناهض الوثاب، قُم من سباتك، وكسّر القيود، وحطّم الأغلال، وتسلّح بسلاح العلم والإيمان، حتى تعود بقارتك إلى شاطئ الأمان قبل أن تغرب نهائياً، وإن الصحراء دائماً منبت للرجال الأشاوس أصحاب القيم والأخلاق النبيلة.

الهادي المبروك الدالي

1995/6/22م

الفصل الأول

شجر الحماسة

شعر الحماسة

هذا اللون من الشعر تغنى به شاعر الصحراء، عندما بدأت طلائع الاستعمار الفرنسي تقترب من بلاده، فالشاعر كان لسان قومه، وهو الذي يرشدهم ويحذرهم من أي مكروه، فقصيدة الشاعر عثمان بن حولن الأنصاري يحذر فيها أبناء جلدته من التعامل مع الاستعمار الفرنسي، والثقة فيه.

عند دخول الفرنسيين إلى أرض السودان الغربي، أخذوا يعيشون في الأرض فساداً، ويتظاهرون بأن مجيئهم إلى تلك الديار له هدف نبيل، وشريف، وهو إخراج أبناء هذا الوطن من الجهل والمجاعة والتخلف، وتخليصهم من قيود الإسلام إلى النصرانية، ويخاطبون الأفارقة بأن السبب المباشر في تخلفكم هم العرب الذين ارتبطتم بهم لفترة من الزمن، ومكنتموهم من أنفسكم، ونصبتموهم حكماً عليكم، واعتنقتم دينهم، وهم السبب المباشر في تأخيركم ونحن، (أي الفرنسيين) أتينا لإنقاذكم مما لحقكم من جهل وتخلف، فكأن الجهل والتخلف مكتوب على العرب.

ولكن أهل السودان الغربي كانوا متيقظين لهذه الأقاويل التي لا تنبئ إلا عن حقد دفين. وظهر شاعر الصحراء معرياً كافة ألاعيبهم حيث يقول لهم في هذه القصيدة، إن ما ترمون إليه كله معروف عندنا، ويحذر أبناء وطنه من التعامل مع المستعمر والثقة في كلامه. ويطلب منهم أن يكونوا

يداً واحدة ضد العدو، وأن يكروا عليه كرة رجل واحد، ولا يتنازعا
فتذهب ريحهم. والشاعر الصحراوي، يأتي لهم بأمثلة من الطبيعة المحيطة
بهم ويذكرهم بقصة الأسد مع ثيرانه وأن يأخذوا العظة والعبرة من ذلك،
ويحذرهم من أن يُعود الاستعمار كلها كاذبة وخادعة، وإن الجهاد يقوم
به المسلمون فهو طريقهم إلى النصر، ومن لم يستطع مقارعة الأعداء فعليه
بالهجرة بدينه حتى لا يتعرض لضيم المستعمر. وشبّه الشاعر المستعمرين
بالأفاعي، حيث يبدو الشاعر مثقفاً دينياً وأديباً فهو يستمد شعره من صور
شعرية بديعة.

وله قصيدة أخرى يهجو فيها الخونة المتعاونين مع الفرنسيين. ثم يمدح أميرهم اللود الأنصاري في قصيدة ثالثة.

قصيدة عثمان بن حلو الأنصاري

من بحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

وَمَنْ يُحْكَمْ كَافِرًا فِي نَفْسِهِ	لَا غَرَوْ أَنْ بَاءَ بِشَرٍّ مَقْتَلٍ ⁽¹⁾
كُونُوا عَلَى الْعَدُوِّ فِي اللَّهِ يَدًا	فَفِي السَّائِغِ لُزُومُ الْقَشَلِ
بَلْ قِصَّةُ الْأَسَدِ مَعَ ثِيرَانِهِ	فِيهَا لَكُمْ ذِكْرٌ وَضَرْبٌ مَثَلٍ
فَالضُّيْغَمُ الضُّيْغَمُ يَا مَنْ رَامَ أَنْ	يَسْرِى فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلِيلِ ⁽²⁾
وَعَدُ النَّصَارَى كَذِبٌ وَعَدْلُهُمْ	جُورٌ وَمِيرُهُمْ وَخَيْمُ الْمَأْكَلِ
لَا تَتَرَأَى نَارَ مُسْلِمٍ وَكَأَنَّ	فَرَنْهَى عَنْ ذَاكَ خَيْرٌ مُرْسَلٍ
وَسِلْمُهُمْ حَرْبٌ وَبَذْلُ مَالِهِمْ	يَقْلِبُ بِالْمَكِيدِ وَالْتُّحِيلِ
وَالسُّمُّ فِي جَوَارِهِمْ وَقُرْبِهِمْ	وَمُسْلِمٌ بِنَارِهِمْ لَا يَصْطَلِي
وَمَنْ يُوَالِ الْكَافِرِينَ فَهُوَ مِنْ	وَلَايَةِ اللَّهِ لَهُ بِمَعَزَلِ
وَكُلُّهُمْ الدِّينَ إِلَى مَنْ دُونَكُمْ	مَنْ اللَّصُوصِ بئسَ شَأْنُ الْوَكْلِ ⁽³⁾
إِنَّ الْجِهَادَ ذِرْوَةُ الْإِسْلَامِ لَا	يَبْغِي بِهِ بَاغِي الْهَدْيِ مِنْ بَدَلِ
هَلْ تَكْرَهُونَ فِي الْجِهَادِ أَحَدًا	حَسَنِينَ جَنَّةَ وَنَقْلِ

(1) باء: رجع

(2) الليل الأليل: الشديد الظلمة.

(3) الوكل: العاجز.

على القوي كُتِبَ الجهادُ لـ
وَالْجَوْرُ وَالْإِسْلَامُ فِي بِلَادِنَا
مصلحةُ الدينِ عَلَى الدُّنْيَا يُرَى
وَاللَّهُ ضَامِنٌ لِمَنْ هَاجَرَ فِي
ضِمَانِ قَادِرٍ كَرِيمٍ مُوسِرٍ
وَهَارِبٍ بِدِينِهِ شَبْرًا لَهُ
فَإِنْ يَمِتْ فَضْمَرَةٌ سَلَفُهُ
وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْفَتَى مِنْ مَقْعَدٍ
وَكُونِهِ تَحْتَ خَبِيثٍ مُشْرِكٍ
مُنْتَسِبٍ لِرَبِّهِ مُثْلَثٍ
لَا يَتَّقِي النَّجَسَ وَلَا يَسْتَاكُ مِنْ
يُسُومُهُ سُوءَ الْعَذَابِ كُلَّمَا
وَأِنْ دَعَا لَبَّى وَقَامَ مَائِلًا
هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ نَرْجُو عِصْمَةً
تَأْبَى الْمُرُوءَةَ لِأَهْلِهَا وَيَأْ
هَا إِنْ ذِي نَصِيحَةٍ مِنْ رَبَّنَا
صَلَّى إِلَهُنَا عَلَى مُحَمَّدٍ
وَحُلَفَائِهِ أَبِي بَكْرٍ وَفَا

كُنْ هَجْرَةً عَلَى الضَّعِيفِ الْأَعْزَلِ
خَيْرٌ مِنَ الْعَدْلِ مَعَ الْكُفْرِ الْجَلِيِّ
تَقْدِيمُهَا حَتْمًا فَرَاغِ الْأَفْضَلِ
سَبِيلُهُ سَعَةٌ عَيْشٍ مُخْضَلٍ⁽¹⁾
مَتْنًا وَفِي الْعَهْدِ تَفْضُّلٍ
فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ خَيْرٌ نُزْلٍ⁽²⁾
وَهَلْ لَهُ مِنْ رَاغِبٍ مُتَثَلٍ
بَيْنَ الْأَفَاعِي وَالْأَشْوَدِ الْبُسْلِ
عَلَجٍ عَنِيفٍ أَعْجَمٍ مُسْتَثْقَلٍ
مُجَسِّمٍ مُشَبِّهِ مُعْطَلٍ
خُبِيثٍ وَلَا يَدِينُ دِينَ الرُّشْلِ
خَالَفَهُ فِي نِيَّةٍ وَعَمَلٍ
بَيْنَ يَدَيْهِ مُظْهِرُ التَّنْذِيلِ
مَمْنٌ يُعَافِي مَنْ يَشَاءُ وَيَبْتَلِي
بَى الْعَقْلُ وَالشَّرْعُ بِذَلِكَ الْمَنْزِلِ
نَرْجُو قَبُولَهَا إِذَا لَمْ تُقْبَلِ
وَالِهَ أَهْلِ الْمَقَامِ الْأَكْمَلِ
رُوقٌ وَعِثْمَانُ وَمَوْلَانَا عَلِيٌّ

(1) عيش مخضل: ناعم.

(2) نزل: ثواب.

وللشاعر عثمان بن حوالن الأنصاري قصيدة يهجو بها الخونة
المتعاونة مع الفرنسيين ويمدح أميرهم اللود الأنصاري.

التصيد هي من البحر البسيط

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

رَاحَ الزَّمَانُ بِأَمْرِ مُبْرِمٍ هَمَمِ	مَا بَيْنَ مُبْتَدَأِ أَمْنِهِ وَمُخْتَلَمِ
بَيْنَ الْأَحْبَةِ وَالْأَوْطَانِ أَوْدَمَنِ	وَفَقَدْنَا دِيَّ الْكَرَامِ السَّادَةِ النُّجَمِ
وَدَارَ عِزَّةٍ مِنْ هَيْنٍ إِلَى فَرْشِ	وَبَرَبِّ رَوْضَةِ الْعَرَبَاءِ وَالْعَجَمِ ⁽¹⁾
يَا لَائِمِي لَا تَلُمِ فَالْقَلْبُ مُحْتَرِقُ	لَوْ كُنْتُ تَعْلَمُ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ هَمَمِ
وَحَقُّ جَفْنِي يُسِيلُ الدَّمَغَ مِنْ جِزَعِ	وَالْقَلْبُ لِلْحَزَنِ وَالْأَوْصَالِ لِلشَّقَمِ
وَالْعَيْنُ تَدْمَعُ مِنْ شَهْرِ إِلَى سَنَةٍ	فَمَا ارْتَضَى الْبَثُّ بِالذُّمُوعِ دُونَ دَمِ
يَا قَائِمًا بِحَذَا عِزٍّ أَعْدَ خَبْرًا	عَنْ مَنْزِلِ بَجْنَابِ الْهَيْنِ مِنْهُمْ
وَمَعْدِ قَسَمِ الْفَقْدَانِ أَرْبَعَةَ	بَيْنَ الْوَحُوشِ وَبَيْنَ الرِّيحِ وَالْدِّمِ
وَكَانَ مِنْ قَبْلُ وَسْطَ الْحَيِّ كَرَكْرَةً	مَوَالِيعِ النَّوْقِ وَالْأَتْبَاعِ وَالْخَدَمِ ⁽²⁾
وَقَدْ أَرَاكَ فِرَاقِي مِنْ دِمَاءِ فَكَمِ	دَمٌ يَرَاكَ بِغَيْرِ الْجَرْحِ وَالْكَلَمِ
وَكَمْ حَلِيمٍ شَدِيدِ الصَّبْرِ تَيْمَةً	وَعَدَ الْفَرِيقِ وَطُولُ الْبَيْنِ وَالْهَمَمِ
حَيَّاكَ يَا دَارَ عِزٍّ مِنْ هُنَاكَ حَيًّا	يَهْمِي بِمَنْهُمْ فِي الرُّوضِ مُبْتَسِمِ ⁽³⁾
عَنْ ثَغْرِ زَهْرِ بَنُورِ التَّوْزِ مِبْتَهِجًا	مِنْ مُورِقِ أُنْقِ الْأَوْرَاقِ مُلْتَمِ ⁽⁴⁾
حَتَّى غَدَا كُلُّ نَجْدٍ فِي مَحَاجِرِهَا	مُخَرَّرًا مِنْ أَتَى الْمَاءِ مُنْسَجِمِ ⁽⁵⁾

(1) هين وفرش: موضعان، بربر روضة: مقابر الأنصار.

(2) الكركرة: الجماعة، والموالمع: جمع مالمعة أي مسرعة.

(3) يهمي: يصب.

(4) التوز: نوع من الشجر يكثر بصحراء السودان الغربي.

(5) المحاجر: الحدائق، والمخرر: المصوت، والخير: صوت الماء، والأنى السيل.

والطير تغرد والأغصان لاعبة
 تلك الفتاة التي يلهو بها أحد
 كحلأ في سعة العينين واضحة
 عجزاء ممكورة براقعة قليق
 كم من خليل وزير مُصعدٍ عُذراً
 إلى ذراها يزور من تأففها
 تزداد للعين إبهاجاً إذا ذهبت
 وكم أحن حنين الثاكلات على
 عساك إن مت في ذراك مت على
 لما تذكرت يوم السدر نازلة
 ونظرة سلبت قلبي فطائنة
 ردي بقية روح فات من رمقي
 سحارة الطرف ترمي من محاسنها
 وأرثي لقلبي بما في سحر عينك من
 ورُب شوق مُذيب لي إليك مضي
 وصفت حالك للعشاق فارتفعت
 وتحت سقفك شخص عن ظواهره
 خلف الخمار جمال قد تخامره
 عواطل السرب ترعى في مراتعها
 وما رعى من هواها إذ تذكرها

ضفادع الرّوض في النقيق من أُم⁽¹⁾
 عن السّمير وعن أهل وعن رَحِم
 لَعسَاء في شفتيها حوّة الأدم⁽²⁾
 عنها الوشاخ وتمّ الطبع في الكرم⁽³⁾
 فوق الجبال وبين البحر والأكم
 كأنها قرية من كثرة الأُم⁽⁴⁾
 وتخرج العين من وجه إلى قدم
 آثارها وحنين البعد كالعدم
 تملأ ما شجى صدر بمُتّهم
 مُقيمة خدرها المضروب في الخيم
 شجا الفؤاد بنار الوجد مضطرم
 يا ديمة خرجت في أحسن الدّيم
 حبّ الفؤاد بسهم العين مُبرهم
 حبايل آخذات الرأس والقدم
 حتّى أذابت به الأعضاء من ألم
 خبار حُسينك في الفيفاء والأطم⁽⁵⁾
 نور كبهجة نور البدر في الظلم
 حسن الطّبائع من حلم ومن كرم
 فريق عزة بين الشّوق والهمم
 إلّا بدمع على الخدين منسجم

(1) النقيق: صوت الضفادع، والأُم: القرب.

(2) اللعس والحوّة والأدمة: حمرة تميل إلى السواد.

(3) الممكورة: المرأة ذات الساق الغليظة.

(4) تأففها: اكتنفها.

(5) الفيفاء: الفلاة.

كم من قتيل الهوى العذري في بلدي
لما تصوورها للعين في سنة
حيّاك ربّ الوزي في كلّ آونة
وأصبحت في نساء الحيّ ظاهرة
وفي الخدور بدور قد تأثفها
يمشين مشيّ الأطباء عن حناجرها
كم من فقيه نبيه زاهد ورع
لكن إذا طلعت شمس للنهار فلا
كم عاقل رمته فانفجرت
وقد تسليث عن تبرّحي يا كمّدي
ودمنة نسفت عنها الصبا سفعاً
لئياً بلّغي ترى الأثافي كامنة
بين الأطوم طويلاً ما تعاقبها
فبدّل الأنس وحشاً والمُنى كمدأ
فبتّ ولهان في ربع تقسمه
وكان من قبل طال ما تكرر
وكلّهم لذري عزّ يطالبها
وصير الدهر ذاك شذراً مذراً
يا لائمي لا تلمّ والنصح يُخبلني
والبتّ أمرضني والحزن أرقني

وقد أفاق من الأحزان بالحلم
له فهشّ ودأوى القلب من سقم
بكلّ مكرمة الأخلاق في الذم
فوق اللذات بحسن الخلق والشيم
أتباع صدق من الأحرار والخدم
كواكب من قلائد ومن ضم
أضبيته وهوى وهمّ باللم
ترى النجوم ولا بدرأ على الأطم
منه غروقه الهوى العذري من رأم⁽¹⁾
بعد النوى بصوار الظبي والديم⁽²⁾
كأنها خطط عن أملس الأدم⁽³⁾
أو الجواذر من مور ومن هدم
سواهك الريح والإعصار والرؤم⁽⁴⁾
فما بها من طبيب الشقم والألم
سرب القطا وصوار الظبي منهدم
مواكب الخيل والشعاة والرؤم
بنظرة العين أو بكلمة بقم
يا ليثني ذاك لم أشهد من أمم
والشوق ألبسني درعاً من السقم
والهم أترع من رأسي إلى قدمي

(1) الرأم: الحب.

(2) الصوار: القطيع من بقر الوحش.

(3) نسفت: أزال، وسفعاً: رماداً.

(4) السواهك: جمع ساهكة، الريح العاصفة.

والبين أولهني والدهر كابدني
من بين عزة والدُموع تشهد لي
تلك الفتاة التي علّقْتُها عَرَضاً
كم من فلاة مهيلٍ ظهرها غَشِيَتْ
فلا ترى العين إلا ما يُخَوِّفُها
لكن ترى الوحش في بحرِ الفلاة رَعَتْ
أُمْسِيَتْ فيها أمَجُّ البقل من عطشٍ
ولا أعاقبُ عن ظهر الفلاة سوى
وَرَهْمَةٍ ملأت عيني من رشي
إذا تَلَأَّت البروق فاندفعت
فألجأتني إلى الأشجار مُتَّخِذاً
أنخت وهمي وما إن نِيَخَ من تعبٍ
ترى الرّواتك عن أعلى طريقيها
كأنما فُلِقَتْ عنها ببلقعة

يحملٍ وجدٍ قصيمٍ الظَّهر من دقم⁽¹⁾
ما بين مُنهمرٍ مِنِّي ومُضطرمٍ
ما مثلها في نساء العرب والعجم
وجهي بأهوال الجوّ والشَّيم⁽²⁾
كالثرس في شبه البحر في طَمَم⁽³⁾
وجدجداً بدل الحيتان والبلَم⁽⁴⁾
إِبَّانٍ قيظٍ مكان الماء والرَّخِم⁽⁵⁾
سرب الظُّبا وقطاً وهيقيم صَتَم⁽⁶⁾
وسط الفلاة ولا أحسُّ من رنم⁽⁷⁾
شآبيب القطر عن رأسي إلى قدمي⁽⁸⁾
أكنافها بَدَل الأبيات والخيم
لكن لجمالٍ غرابيبٍ من الدِّيم⁽⁹⁾
ما بين مستتر عَنِّي ومُقتَحِم⁽¹⁰⁾
حناظل القيظ أو جَمَاجِمُ البَهم⁽¹¹⁾

(1) الدقم: الضرر.

(2) مهيل: مفزع، والشيم: البرد.

(3) الثرس: المجن.

(4) الجدجد: نوع من الجراد يكثر بالسودان الغربي ويلتهم المزروعات، والبلَم: صغار السمك.

(5) الإبان: الوقت، والرخم: اللبن غليظ القوام.

(6) الهيقيم: الظليم الطويل، والصتم: الشديد.

(7) الرهمة: المطر الضعيف والمستمر في النزول، والرنم: الصوت.

(8) الشآبيب: جمع شؤبوب، دفعة من المطر (شبوب).

(9) الوهم: الجهل، الدلول: ذو الجسم الضخم والقوي، والغرابيب السود والديم: الأمطار الدائمة.

(10) الرّواتك: التي تسيّر الرّتك نوع من السير ويريد بها النعام.

(11) البهم: صغار الغنم.

كأنَّ أعناقُها كُراسٍ سائفةٍ	أفواهُها كَصُدُوعِ النِّبعِ والوَسَمِ ⁽¹⁾
شُخْتُ القوائِمِ لا مأوى لها أبداً	إِلَّا الذَّهاسُ عن الأحقافِ والهومِ ⁽²⁾
تَرى الظِّلِمَ تُحاذِيهِ نَعَامَتُهُ	يُلْهِيهِ ماءٌ ومرعى الدَّوِ عن أكمِ ⁽³⁾
حتى إذا ما استوى عن ربوة نظراً	وَشامَ أفرخه وخاف من رُكَمِ ⁽⁴⁾
فارقدْ من تحتِ عِراضٍ ويطرُدْهُ	سَواهِكُ المورِ والإعصارِ والنَّسَمِ ⁽⁵⁾
تتبَّعه صعلَةٌ خرجاءُ تطرُدْهُ	مَراً تُسابقُهُ في الجري والنَّجَمِ ⁽⁶⁾
فكُلْ ما انحدرًا في طلقِ شوطهما	تبادرا ماطرًا بالجري كالضُّرمِ ⁽⁷⁾
لا يَأْمَنانِ ذئابَ الدَّوِ أو غرقاً	إنْ أغلَسا دُونَ زُعرٍ خُرقِ التِّلَمِ ⁽⁸⁾
والخُرقُ دونَ بناتِ البيضِ مُنتهبُ	كما تناهبُ أَشدُّ ثَلَّةِ الغَنَمِ ⁽⁹⁾
لا يذخرانِ مِنَ الإيغالِ بَاقِيَةً	حتى تَكَادَ تَبِينُ الرِيشُ عن آدمِ ⁽¹⁰⁾
صدعُثُها لَذى عَزَّ على جَمَلٍ	وهم يُباري نَسيمَ الأيُنُقِ الرُّشَمِ
يَشْكُو الخِشاشَ ومجرى السَّعَتَيْنِ إذا	ما شَدَّ حَشَمي بالكورِ والولَمِ ⁽¹¹⁾
لا تُشتكي عَثْرَةً مِنْهُ وقد قُطِعَتْ	به المفاوِزُ والفيافي بالسَّعَمِ ⁽¹²⁾

(1) الصدوع: الشقوق، والنبع: شجر يكثُر في السودان الغربي وربما يقصد به شجر النبق، والوسم: جمع وسمه، نوع من النبات.

(2) شنحت القوائم: رقيقة القوائم عارية من اللحم، والدهاس: الرمل الرقيق.

(3) آلاء: ثمر شجر، والدَّو: الفلاة.

(4) شام: نظر.

(5) أرقد: أسرع، والعراض: المطر الشديد.

(6) الصعلة: الصغيرة الرأس، وصرجاء: فيها بياض وسواد، والنجم: سرعة الانصراف.

(7) ماطرًا: أي سحاباً والضرر والحريق.

(8) اغلسا: اظلما، وزعر: قليلا الشعر.

(9) الخرق: الفلاة الواسعة، والثلة بالفتح: القطعة من الغنم.

(10) الايغال: الإسراع، والأدم: الجلود.

(11) الخشاش: ما يجعل في أنف البعير ليشد فيه الزمام، والكور: الرجل، والولم: حزام الرجل.

(12) السعم: ضرب من السير وحركة للضرورة. والفيافي لو استبدلها صاحب القصيدة بالبدياء لكان أفضل.

كأنه عاسجاً أو واسجاً أبداً
 أمسى يشوق نحائصاً مُحملجةً
 وبينما هو يلهو في مأكله
 والحقبُ تتبعُهُ في الرعي لعبةً
 إذ مُقنصٌ بين حُقيهِ ومركزهِ
 فارقد من فرقي بالجري منحدرأً
 وصاحبُ الصيد حيالاً لبُغيته
 مقزّعٌ أطلس الأثواب ليس له
 يُغري مهرته الأشداق ضاربةً
 كأن راكبه حقمٌ بمُنحدرٍ
 يخدي بمُنخرق الأثواب مُنصلتٍ
 أخي تنائق والضُبانِ وقَعثُهُ
 حاجتُ لها جُوعٌ في الأيك ضاريةً
 من البزاة طويلاً ما تكررهما
 وثبُ المسحج بين العصر والغسم⁽¹⁾
 يرعى بهنّ فُتات البقل في اليهم⁽²⁾
 من الحناظل والتثنوم والعنم⁽³⁾
 دهرأً طويلاً وما سمعن من رنم⁽⁴⁾
 أغرى به جوعاً في القرب عن أكم
 جرياً تَكُونُ به الأحجار كالرّمم⁽⁵⁾
 ألفى أباهُ بذاك الكسب في القدم
 إلّا الضراء وإلّا الصيد من نَعَم⁽⁶⁾
 زُرْقاً مخصّرةً من شدّة الهضم⁽⁷⁾
 تخدي بها دفعات المور والرُكُم⁽⁸⁾
 لأجل فرط ركوب الحرّ والشبم
 كحسو حقم على الأنشاج والذلم⁽⁹⁾
 شواذب من طوى الأجواف والقرم⁽¹⁰⁾
 في الأيك لطح من الأمطار في الديم

(1) عاسجاً: ماداً عنقه، واسجاً: مسرعاً، والمسحج: المعوض، والغسم: الظلمة.

(2) نحائص محملجة: مفتولة شديدة، واليهم: البريّة.

(3) الحقب: الأثن التي في بطونها بياض.

(4) لو قال فارقد كان أفضل.

(5) مقزّع: قليل الشعر، وأطلس الأثواب: أغبرها، والضراء: الاختفاء بالأشجار لصيد فريسة.

(6) الهضم: الضمر.

(7) الحقم: طائر يشبه الحمام يوجد بكثرة في مدينة جنى، وسيقوا، وفندام، إلّا أنه يختلف عنه بأن ساقه أطول من الحمام.

(8) التنايف: الفلوات التي لا ماء فيها ولا أنيس. والضبان: الضباب، والوقعة: النومة آخر الليل، والانشاج: مجاري الماء، والذلم: مفيض مصب الوادي.

(9) الطوى: الجوع، والقرم: شهوة اللحم.

والصقر ساج إليها عندما وردت
طارَت إلى الجو والبُرْاة طالِبَةً
لا يذخران من الإيغال باقيةً
يا صاح عُذْ عن بَكَاكِ الدَّهر من كمدٍ
إذ لا ارتجاع لما قد مرَّ من زمنٍ
وسل عنه لحوزِ عالمٍ وريحٍ
له مَنَازلُ عزٍّ من أَلَمٍ بها
لا يَتَّقِي في حذاء أرضه أبداً
خِرْقٌ توسَّع للعافين نائلُهُ
والعلم سيرُهُ والزُّهدُ حُرْفَتُهُ
ما إن أتانا بلاء قد وقفنا به
إلا ابتدرنا دارهُ نستجير به
كأنَّ من خَشَّ رَحْباً في منازلهِ
لئن مدحتُ كريماً غَيْرُهُ أضماً
لم تلهيه زهرة الدنيا وبهجثها
له الكراماتُ والأحوالُ شاهدةٌ
لو أنطق الله وحشاً في مراتعها

فبادرتها على الإيغال من أمم⁽¹⁾
لها على تَكَمٍ من شدَّةِ الوَحَمِ⁽²⁾
حتى تكاد تفرَّى الرِّيشُ عن أَدَمٍ
ولا تقولن على ما فاتَ وندمي
بسَفحِ دَمعٍ ولا التَّعدادِ والثُّكَمِ⁽³⁾
غَطْمَطِمٍ مَلِكِ العَرَباءِ والعَجَمِ⁽⁴⁾
نَفَثَ عليه قَتَامُ الذُّلِّ والهَضَمِ
من استجار به من فجأة الدَّقمِ
كالجودِ في منى والبحر في همَمِ⁽⁵⁾
والصبرُ عادته عن جفوة الوجَمِ
على شفا اليأس من هولٍ ومن عَظَمِ
في صَدْمَةِ الدَّهرِ أو في خيفة الهَشَمِ⁽⁶⁾
من شدة الخوفِ في ركنٍ ومُلْتَزِمِ⁽⁷⁾
لكان معنى لمعنى القولِ والكَلَمِ⁽⁸⁾
ولا التفأخر بالأموالِ والحشَمِ
ذا الدافعُ العلمُ بنُ الدافعِ العلمِ
لأخبرت بخصوصِ اللودِ بالكَرَمِ⁽⁹⁾

(1) ساج: ساكن.

(2) التكم: سنن الطريق.

(3) الثكم: لزوم الشيء والإقامة عليه.

(4) الغطمطم: الواسع الأخلاق.

(5) الجود: المطر الغزير، والجود: الكرم.

(6) الهشم: كسر العظم وحركة الضرورة.

(7) خش: دخل.

(8) الأضم: الحسد.

(9) اللود: هو الممدوح، أمير الأنصار، الذي قارع الفرنسيين إلى أن استشهد.

وكم تغير عنه جاهلٌ سفيهاً
تعساً لمن قال إني عبثُهُ حَسِداً
قُلْتُ مقالتي لا بالخوف أو طمعٍ
له رجالٌ كرامٌ لا مثال لهم
إذ كاشحوا وطن العرباء عن سفيه
واستأثروه عن الأوطان فاتخذوا
الكاشحون لغدر الخل في حضير
حتى إذا انصرفوا خاضوا مُعاينة
وقد سبتهم بطون في منازلهم
يُعاقِدون لئاماً في بلادهم

وما تغير أقوالي ولا شيمي
كَبُرَ⁽¹⁾ مقتاً عليه الوزر من دقمٍ
لكن أحصحص قولاً صادقاً بفمي⁽²⁾
لكنهم نقضوا في العهد والذم
واستوطنوا بلد السودان والبرم
أغلجها بذل العرباء والرجم
القائمون له من شدة العشم⁽³⁾
في هجره ونسوا وصية السلم⁽⁴⁾
إلى المآكل تحت الرؤم من بلمٍ
من شدة الخوف أو من فترة الهضم⁽⁵⁾

(1) من المفروض أن تكون هناك واو: وقتاً لاستقامة الوزن.

(2) لو قال «قلت مقالتي بلا خوف ولا طمع» أفضل من عبارة النص.

(3) العشم: الطمع.

(4) السلم: السلف.

(5) فترة الهضم: ضيق العيش

الفصل الثاني

الفخر بالقبيلة

أهلان الشجر

الفخر بالقبيلة:

شهدت منطقة جنوب الصحراء (السودان الغربي) حروباً قبلية طائفية، فكل قبيلة تنسب نفسها إلى جهة، وهذه الفوارق تجر حروباً بين ما يسمى أنصار الأنصار بن أمية.

ترجع قبيلة الأنصار التي هي الآن ضمن سكان جمهورية مالي، في نسبها إلى الأنصار الذين ناصرُوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، في مواجهة الشرك، وبذلك يفتخرون ويقولون الشعر تمجيذاً لهم حيث يقول شاعرهم:

وأنتم من أمية قد ورثتم ونحن من معاذ وارثونا

يقولون إنهم من معاذ بن جبل، وإن كنانة من بني أمية، وأمام هذه البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، فإننا نؤمن بأن الله واحد لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح. كلكم من آدم وآدم من تراب. فالتكريم يكون بالإسلام الذي جاء عن طريق الدعاة، والتجار، لهذه المناطق، أيام عثمان بن عفان، وبمجيئه ترك أهالي السودان الغربي الاعتقاد في ثعابين ووحوش ونار وقمر وشمس وارجار كومبي صالح، واعتنقوا الدين الإسلامي الحنيف، الذي

أخرجهم من الظلمات إلى النور.

لقد أزال الإسلام الفوارق الطبقية، من منطقة جنوب الصحراء، واختلطت دماء الفاتحين بدماء سكان الصحراء، وحدث تزواج بينهم منذ وصول عقبة بن نافع الفهري بجيشه الفاتح إلى ضفاف نهر النيجر، وبالتحديد في منطقة كحل السوق (كيدال)، وتزواج هؤلاء الفاتحون بالسكان الأصليين، وظهر عنصر عربي جديد يتمثل في قبائل الفلان، الذين يرجعون في نسبهم إلى جيش الفاتح العربي عقبة بن نافع الفهري، والتي جاءت تسميتها من ألفي عسكري تركهم عقبة على ضفاف نهر النيجر، فتزاوجوا مع السكان الأصليين وكوّنوا ما يعرف اليوم بالفلان، والكلمة تحريف، «ألفان» (2000) وليس كما يدّعي اليهود أنهم بقايا من الفلاشة. وقد التقيت بعدد من شيوخهم وشبابهم، في تنبكت وجاو وجن وأكدوا لي أنهم من نسل جيش الفاتح العربي عقبة بن نافع الفهري.

لقد أنجبت الصحراء شعراء تغنوا بأمجاد بلادهم، وافتخروا ببطولتهم، ومن بين هؤلاء الشعراء الذين برعوا في الفخر الشاعر أحمد سالم بن السالك من بني الحاج، وشاعرنا من أبناء القرن الثامن عشر الميلادي، ويقطن بعض من أفراد قبيلته صحراء موريتانيا في النعمة وولاته، والبعض الآخر يسكن مدينة كندام، التي تقع إلى الغرب من مدينة تنبكت، وتبعد عنها بحوالى خمسين كيلومتراً، وتبعد عن قرية لير، أول منطقة حدودية بين مالي وموريتانيا بحوالى أربعين كيلومتراً.

وشاعرنا اشتغل مدرساً للقرآن الكريم واللغة العربية، فكان يدرس طلابه علم النحو، في قلب جامعة الصحراء وهي عبارة عن صيحة مبنية بأوتاد وشجر الطلح، الثابتة وفيها أدوات الشاي، من الطبل، والراد، والمجمار، والكؤوس يفوح برائحته الجذابة، والمدرس يدرس المبتدأ والخبر إلخ.

والقصيدة، التي اخترنا لكم منها بعض الأبيات، تحتوي على مائتين
وتسعة أبيات:

من بحر الكامل

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

أم هل صرفتُ إلى السلامة همتي	أم سرْتُ عن شمسِ الوغَى أظلالِهَا ⁽¹⁾
أم هل عدلت إلى الغنائم في الوغَى	عزّ وهجها أم حرْتُ عن أهوالِهَا ⁽²⁾
أم هل عَفَفْتُ وكان ذاك سجيّتي	عند النّهابِ حرامِهَا وحلالِهَا
وعصاية تَغْشَى الْخَنَا عَنُفْثُهَا	وزَجَرْتَهَا عن غِيّهَا وضلالِهَا
وكتائبٍ شعث عوابسٍ بُسِّلِ	ألبَشْثُهَا بِكَتَائِبٍ أمثالِهَا ⁽³⁾
ولكم وضوّدت الخيلَ عن أهوائِهَا	ودماؤُهنَّ تَفُورُ من أكفالِهَا ⁽⁴⁾
وطعنْتُ فارسَها المدجّجَ طَعْنَةً	صاحت حلائلهُ لِوِشَعٍ مِجالِهَا ⁽⁵⁾
وتَرَكْتُ آخرَ بعده مُتَجَدلاً	تمكّو فرائضهُ لهتك وضالِهَا ⁽⁶⁾
وفتحْتُ ثالِثهُ المَنَازِلَ ضربةً	أوصت حليلثهُ بشدّ خِلالِهَا ⁽⁷⁾

(1) اظلالها: مجرور يالِى محذوفة.

(2) الوهج: لهيب النار، وحرّت بمعنى تحولت عنها إلى مكان آخر.

(3) الكتائب: جمع كتيبة، كتيبة من الجيش، كتيبة من الفرسان، وهي تنظيم عسكري. كتيبة وفصيل الخ... وشعت: جمع أشعث: المغبر الرأس، والذي يظهر عليه عناء السفر، والعوابس: هو القطوب، يقولون إنسان عبوس وقطب الجبين.

(4) تفور في أكفالها: تجري في إعجازها، وهو تعبير عن شدة المعركة.

(5) يفتخر شاعرنا بأنه سدد ضربة قاصمة إلى فارسهم، الذي يحمل أسلحة متعددة، ومنها الرمح والسيف والخنجر. واستطاع بشجاعته القضاء عليه حتى إن زوجته صرخت وبكت زوجها لوسع تلك الطعنة التي لا علاج لها إلا الموت المحقق.

(6) متجدلاً: ساقطاً، صريعاً، من الضربة، وتمكّو بمعنى تصفّر، والفريضة ما بين الكتف والضلوع.

(7) الخلال: ما خلّ به الثوب يصنع من العيدان والحديد أو الذهب ويستخدمه نساء الصحراء ويعتبر جزءاً من الأدوات التي تتزين بها المرأة الصحراوية بل تشترطه العروس عند زواجها. =

والحرب تعلم والمشاهد أنني	مردِي فوارِشُها قريغُ نِزالِها ⁽¹⁾
ولكم غَدَوْتُ أمام قومي غازياً	نحو العدا متهيئاً لِقَتالِها ⁽²⁾
ولقد نثرتُ كِنائِتي وبلوتُها	وَرَمَيْتَهُمُ منها بُصلِبِ نِبالِها ⁽³⁾
سُمر السهام مُراشِية أغراضُها	لببُ الأعداي غُرْضَةٌ لِنِصالِها ⁽⁴⁾
شُعْتُ على خُوص حنايا ضُمُر	مثل الفُسيِّ قِلاصِها وجمالِها ⁽⁵⁾
يَطوي المِهامِ نَصُّها وذَمِيلُها	ودؤوبُ مُرقِلِها على إِرقالِها ⁽⁶⁾

= يقول ضربته ضربة أوصت زوجته بشد الخلال من شدة هول الضربة حتى أنها أوصت من بجانبها أن يشد رواءها بالخلال لأنها قد تفقد أعصابها حزناً على زوجها.

(1) يفتخر الشاعر ببطولته، فساحات الوغى تعرفه جيداً بالإقدام ومقارعة الأبطال ومنازلتهم والانتصار عليهم.

(2) أمام قومي، لقد أصبحت القائد الذي يتقدم صفوف الجيش لغزو الأعداء بكامل استعدادي.

(3) نثرت كِنائِتي / الكِنانة: ما يجعل فيه السهام وهو الجعب. يقول استخرجت ما فيها من السهام وبلوتها: اختبرتها، والنبال جمع نبل: وهو السهم.

(4) السمر: التي تضرب حمرتها إلى السواد، مراشة: جعل لها ريش، فالسهم الفتاك الذي تكون ضربته قاتلة ما يكون مقدمه على شكل إشارة زائد فعندما يدخل في جسم الإنسان من الصعب إخراجه، والأغراض بمعنى الأهداف، واللبب: جمع لبث وهي النحر، والنصال جمع نصل.

(5) شعْتُ: الذي يظهر عليه عناء السفر، والخصوص: الغائرة الأعين من طول السفر، والحنايا: جمع حنية: وهي التي انحنت من قسوة السفر، والضمر جمع ضمائر: وهو البعير الذي قطع مسافات طوالاً: يقال ضامر، ويقول رب العزة «بسم الله الرحمن الرحيم وإذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر من كل فج عميق» صدق الله العظيم (سورة الحج/27) والقلاص جمع قلوص: الفتى من الإبل يقول: تلك السهام الصلب التي رميت بها العدو وهم رجال شعْتُ على خوص قد أهزلها السفر وفي هذا البيت افتخار برجاله الأشداء الذين يتحملون قطع المسافات الطوال دون كلل لتحقيق أهدافهم المرجوة منهم.

(6) المِهامِ: المفاوز والنص والذميل نوعان من سير الإبل، والأرقال: الإسراع، والدؤوب: الجد والمثابرة. وهنا الشاعر وكأنه يقول اخترنا لهذا اللقاء نوعاً من الإبل تمتاز عن غيرها بسرعتها ولربما قصد بذلك ما يُعرف بالمهري وهو صنف من أصناف الإبل، يمتاز بالسرعة الفائقة والمهري أنواع: منه من يقطع أكثر من ذلك بكثير. وقصة تفاوت قطع المسافات كنت قد سمعتها من والدي رحمه الله منذ كنت طفلاً، والوالدي من عشاق الفروسية. فكان يقص لي =

تَفْرِى بِهِمْ وَعَرَّ الْجَبَالِ كَأَنَّهَا
ولدى الرمال كأنها بَصَحاصِحِ
بُسْلُ مساعر للحروب عوابِسُ
ثاروا لأخذِ الثَّأْرِ حين ندبتهم
يمشون في سدفِ الدياجي في ندى
لا ينثنون عن الأعادي رهبةً
جاسوا خِلالَ حلالهم حتى إذا
شنوا عليهم غارةً شعواء ما
وسط الجبالِ تجوُّبٌ وعثَ رَمَالِهَا⁽¹⁾
ولدى الصَّحاصِحِ كالنَّعامِ وَزَالِهَا⁽²⁾
ضَبْرٌ على مِحنِ الوغَى وَمَجَالِهَا⁽³⁾
مِثْلَ الأسودِ عَذَابِهَا وَمِحَالِهَا⁽⁴⁾
شَبِمْ وصَرَّ باردٍ لِنَصَالِهَا⁽⁵⁾
حتى تنأخَ رُكائبُهم بحلالِهَا⁽⁶⁾
لاحت ذُكَاءٌ على رُبَى أَحْوَالِهَا⁽⁷⁾
تركوا بها هُبْعاً على بُهَالِهَا⁽⁸⁾

= عن الفروسية وصفات الفارس والخيول وأنواعها وأماراتها إلخ. ومن بين قصصه التي ما زالت عالقة في مخيلتي إلى اليوم أنواع: من المهارة، وهي فصيلة من فصائل الابل. تتفاوت سرعة المهري من واحد إلى آخر فالمهري الذي يولد ويبقى باركاً على الأرض يومين أفضل من الذي يمكث في الأرض يوماً، ومن يمكث أربعة أيام أفضل من الذي يمكث ثلاثة. وهكذا فكلما ما بقي فترة على الأرض بعد ولادته أفضل من غيره الذي يقوم في حينه. وأكثر من يعرف هذه المسألة سكان الصحراء وخاصة التوارق.

- (1) تفري: تشق، والوعر المكان الصلب أي الصعب اختراقه، والوعث ضده.
- (2) والصحاصح: جمع صحصح وصحصحان: المستوي من الأرض، تجوب: تقطع والرال: ولد النعام يقول: تشق بهم وعر الجبال، فكأنها حينئذ تجري في الرمال وكأنه يقول إن خيلهم قادرة على شق الجبال الصعبة والرمل العاتية وشبهها بفراخ النعام في سرعة عدوها فشاعر الصحراء يلتقط كلماته من الطبيعة المحيطة به.
- (3) مساعر للحروب جمع مسعر: الموقد كأنه الحرب توقد.
- (4) ثاروا: نهضوا، ندبتهم: استنجدتهم مثل الضرغام، وعذابها ومحالها بدل اشتمال من الأسود، والمحال: الكيد والمكر والخديعة والجدال والقدرة والقوة والشدة.
- (5) السدف: الظلمة، والدياجي جمع دجية الظلمة، دليلاً على الشجاعة والإقدام، والنصال الترامي بالنبال وغيرها من أدوات الحرب في تلك الفترة.
- (6) لا ينثنون: لا ينصرفون حتى ينيخوا ركبهم بحلال العدو، والحلال جمع حلة الحي.
- (7) جاسوا: وطأوا بشدة وذكاء.
- (8) شنوا عليهم الغارة: صبّوها عليهم من كل وجه، وشعراء منفرة أي بمعنى قوية.

تركوا ديار كُناتة مَنهوجة⁽¹⁾ وحمائهم وكماتهم غادرتهم⁽²⁾
 عاثت بهم غلب الضباع وجرت ظلت تهادي الخامعات لحومهم⁽³⁾
 ما نمت عن ثأري أميمة في العد فسلي كُناتة هل ثأرت بفتيتي⁽⁴⁾
 أم هل أبحث حماهم يوم الوغى يوماً تصبب بالعبير دماؤهم⁽⁵⁾
 ظلت تصبب من نجيع سراتهم ظلت من كمي قد تركت مجدلا⁽⁶⁾
 لفرارها عن آلهة في آلهة⁽⁷⁾ جزر السباع جلالها وضئالها⁽⁸⁾
 أشلاءهم لوجارها وجالها⁽⁹⁾ تمشي جعاربها إلى خزعالها⁽¹⁰⁾
 حتى شفيث النفس من بلبالها⁽¹¹⁾ يوم الوغى منها بخير رجالها⁽¹²⁾
 وعركتهم عرك الرّحا بثفالها⁽¹³⁾ سيلان زق قُطعت بحبالها⁽¹⁴⁾
 غيطان دُور من حمى أقيالها⁽¹⁵⁾ بخلال عرصتها وبين تلالها⁽¹⁶⁾

- (1) منهوجة: أي موطأة بالأقدام لفرارها أي كناتة عن الها عن املها في إلهة في سراها.
- (2) وتركت حمائهم وكماتهم جزر السباع جلالها أي كبارها وضئالها: صغارها.
- (3) عاثت: تعيث أكثر من الفساد والأشلاء، الأعضاء: جمع شلو، والوجار: سرب الضبيع، والجال: جبال وهي الضباع. وكأنه يقول تركت قبيلته أشلاء أعدائها تنهشها سراب الضباع في الصحراء.
- (4) تهادي: تنهادى، والخامعات: الضباع، والخزعال: بالفتح الضبيع.
- (5) يقول ما نامت له عين حتى أخذ بثأره وشفى غليل صدره من أعدائه، والبلبال: البرحاء والهم في الصدر.
- (6) وعركتهم: طحنهم، والرحا: الطاحونة، والثقال ما يفرش لها والبا بمعنى مع وهو يصور لنا صورة أعدائه فاستمد من الأدوات التي تستعمل يومياً صوره البلاغية ليقرب لنا الصورة أكثر.
- (7) العبير: أخلاط من الطين أو الزعفران، والزق: بالكسر القربة. وهنا ينقل إلينا ما كان عليه أعداؤهم من هزيمة حتى إن دماءهم تسيل بقوة وكأنها قُرْب مملوءة بالماء وقطعت حبالها فاندفع منها الماء بغزارة وهو تشبيه بليغ مع رصانة في الكلمات.
- (8) النجيع: الدم، والسراة: السادة جمع سري، والغيطان: جمع غائط وهو المستوي من الأرض، والأقيال جمع قيل الملك أو الملك دون الأعظم.
- (9) الكمي: الشجاع، المسلح بالسلاح ومجدلاً: صريعاً، والتلال: جمع تل وهو المكان المرتفع.

وخريدة حسناء بيضاء عادة
تبكي وتندب بعلها وحميمها
وقديمة سلب الجلال جمالها
تبكي وتسال عن أخيها وابنها
تدنوا إلي وتشتكي فيعظمها
وكريمة تأبى السؤال لفضلها
ويصونها عند السؤال حياؤها
وحبوتها فضلا بفاخر تالدي
ثم انثيت وما احتملت مذمة
وأنا الذي شهدت كنانة بأسه
كفي وفكي صارمان كلاهما
موثوا بغيطكم كنانة إنني
فليبكين مع البواكي حاسرا
أو ينفسن كنيسة ونسائها
لم يُغن عن فتياهم في حربهم
وليزعن عن القريض فلم ينل

أبرزتها من خدرها وجمالها⁽¹⁾
وتنوح معولة على أشبالها⁽²⁾
غادرتها تحنو على أطفالها⁽³⁾
حدبا وتسال عن سلاله خالها⁽⁴⁾
رفدي قبيل تمامها لسؤالها⁽⁵⁾
ومصائبها تشكو إلي بحالها
فمنحها كراما كرائم مالها
وتشرت ذخر حقائي لعيالها⁽⁶⁾
وشفيت صادي غلتي بعلالها⁽⁷⁾
وأنا المعد لغيظها ونكالها
أعدته لجلادها وجدالها
أنا ذاكم مردي العدا بنبالها⁽⁸⁾
بكأوهن ويجلسن بخلالها
إذ لم ينفسن من عظيم وبالها
شيء ولا فتياهم ببالها
يفريضة إلا سماجة قالها

* * *

- (1) يقول: ورب خريدة حسناء سبيتها وأخرجتها من خدرها وجمالها.
- (2) تبكى وتنوح على بعلها وقيمها أي قريبها، معولة: رافعة صوتها بالعويل والنواح، والأشبال: بمعنى أولادها.
- (3) القديمة: المرأة المسنة والتي خلع عليها الزمن الجمال والحسن الذي كانت عليه في صباها، غادرها بمعنى تركتها تحنو وتعطف على عيالها.
- (4) حدبا: أي شفقة وتسال عن أبناء خالها. والحدباء ما يحمل عليه الجثمان.
- (5) ترنو إلي وتشتكي حالها فيعمها عطائي قبل أن تكمل سؤالها.
- (6) حبوتها بمعنى أعطيتها والتليد التالف التاريخ، التليد المنتهي منذ زمن بعيد.
- (7) أثيت انصرفت، والغلة العطش، والعلال جمع علل وهو الشرب بعد النهل.
- (8) مردي العدا مهلكها والتبال الهلاك.

وقال أيضاً:

من بحر البسيط

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

- | | |
|--|--|
| يَا هَاجِيَا هَازِيَا بِالْكَذِبِ مُفْتَحَرًا | الكذبُ داجٍ وتُورُ الحقُّ قد ظهراً ⁽¹⁾ |
| ورونقُ الشعرِ كذبُ القولِ يَسْلِبُهُ | والصرفُ أحسنُ ما فاهتَ به الشعرُ ⁽²⁾ |
| والفخرُ بِالْكَذِبِ لَا يُجْدِي وَظَلْمُهُ | من تحتها صُبحَ الحقِّ قد ظهراً ⁽³⁾ |
| أَتَعَبْتَ نَفْسَكَ لَا تَنْطِقْ بِهَا كَذِبٌ | يهجو الكذوبَ ويمسُحُ الحقُّ ما سَطَرَ ⁽⁴⁾ |
| يَهْجُو الْكَذُوبُ وَلَا تَبْدِي مَقَالَتُهُ | إِلَّا الَّذِي مِنْ خِصَالِ الْمَجْدِ قَدْ سَتَرَ ⁽⁵⁾ |
| رَكِبْتَ عُرياً إِلَى الْعَوْرَاءِ عَيْرِكَ إِذْ | عَيَّرْتَ مَنْ فَرَّ مِنْهُ الْعَارُ وَاسْتَتَرَ ⁽⁶⁾ |

(1) الهاجي المهاجي، والهاذي من الهذيان وهو يكثر من الكلام بدون أفعال. فكثير الكلام يقول الحكماء لا يشكل خطورة أما الذي يشتغل في صمت فهو الذي يحسب له ألف حساب. وعندنا مثل في ليبيا على من يتكلم بدون فائدة فيقولون: «كثير نباح الكلب على روحه» (نفسه)، والداج المظلم.

(2) الرونق الحسن ويقصد بذلك أن الكذب يسلب جمال الشعر وحسنه. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شاعر الإسلام زهير بن أبي سلمى: «إنه أشعر الناس لأنه لا يمدح أحد إلا بما فيه».

(3) لا يجدي ليس له أي فائدة لأن ما بني على باطل فهو باطل.

(4) بما كذب أي بما هو كذب فكذب خبر لمبتدأ محذوف.

(5) يبين هنا أن هجاء الشاعر الذي عرف بقول الكذب لاقيمة لكلامه لأنه لا يصدق الناس. ويشير هنا إلى قول أبي تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

(6) ركب عرياً أي بلا سلاح والعرير بالفتح الحمار والعوراء لا تقال فهي تنم عن القبح، وشاعرنا رابع الشعراء الثلاثة الذين يحكي لنا أبو نصر المزرباني أن أحدهم شلشل والثاني سلسل والثالث قلقل، فالذي شلشل هو الأعشى إذ يقول: «فقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاد مثل شلول شلشل».

والثاني مسلم بن الوليد إذ يقول: «سلت وثلت ثم تسل سليلها: فأتى سليل سليلها مسلولاً».

إِخْسَاءً فَقَوْلُكَ لَا يُصْغَحُ لَهُ أَحَدٌ
سُحْقاً لِقَوْمٍ جَرَى يَوْمًا لَشَاعِرِهِمْ
يُسْدَى الْقَرِيضُ وَمَا يَجْدَى الْقَرِيضُ لِمَنْ
تُهْدَى الْقَرِيضُ وَمَا تُهْدَى بِهِ حَسَنًا
هَلَّا مَدَدْتَهُمْ بِجَحْفَلٍ لَجِبٍ
جَهَلْتَ قَوْمَكَ فَاسْتَسَمَنْتَ ذَوَارِمَ
إِنْ كُنْتَ تَحْسِبُهُمْ خِيَلًا فَصِلْ بِهِمْ
أَرْبَعَ بِنَفْسِكَ لَا يَغْرُرُكَ قَوْلُهُمْ
مَا أَنْتَ أَوْلُ مَغْرُورٍ بِكَذِبِهِمْ
دُعُوا بَنِي نَاصِرٍ لِنَصْرِهِمْ فَأَتُوا
دَعَا الْحَرْبِ وَحِينَ الْحَرْبُ بَالٌ جِمَا
عَدُّوا الْفَرَارَ فَخَارًا وَالنَّجَا هَرَبًا
لَوْ كَانَ يُنْجِي الْفَرَارُ مِنْ قَضَا لَغَدَا
أَوْ كَانَ يُنْجِي الْفَرَارُ هَارِبًا لَنَجَا

فَالنَّاسُ أَجْمَعُ عَنَّا اسْتَحْسَنُوا الْخَبْرَ⁽¹⁾
مَا لِلْقَوَانِينِ فِي سَيْقِ الْحَصَانِ جَرَى⁽²⁾
جُنُودُهُ فِي الْبَرَى أَضْحَوْا شَذْرًا مَذْرًا⁽³⁾
إِذْ لَوْ رَأَيْتَ لِمَا تُهْدَى بِهِ نَفَرًا
يُضْحَى بِهِ جُنْدُكَ الْمَغْلُوبُ مُنْتَصِرًا⁽⁴⁾
خِلْتَ السَّرَابَ شَرَابًا وَالنَّوَى ثَمَرًا⁽⁵⁾
إِلَى حِمَاةٍ تَجِدُهُمْ إِذَا حُمِرَا
وَأِنْ تَقُلْ بَارِدٌ أَدُلُّ يَدِيكَ تَرَى⁽⁶⁾
غَرُّوا بِهِ نَاصِرًا فَخَلْفُوهُ وَزَا⁽⁷⁾
مُبَادِرِينَ وَعَنْهُمْ أَزْمَعُوا سَفَرًا
زُهًا الدَّمَاءُ تَوَلَّوْا عَنْهُمْ زُمَرًا
وَمَا الْفَرَارُ بِلَاقٍ عَنْهُمْ الْقَدَرَا
مَنْ مَاتَ مِنْ عَطَشٍ مِنْهُمْ كَمَنْ صَدَرَا
مَنْ فَرَّ عَنْ قَوْمِهِ مِنْهُمْ وَمَنْ نَفَرَا

= والثالث المتنبي إذ يقول:

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشَاء قلاقل عيسى طهن قلاقل

- (1) إخسأ: في الأصل زجر الكلب لا يصغي لا يستمع.
- (2) القوانين قبيلة من الحسانين. كانت لها صولات وجولات في ميادين الوغى.
- (3) البرى الأرض، وشذر مذر متفرقين في مختلف الاتجاهات.
- (4) الجحفل: الجيش الكثير العدد، والجلب كثير الأصوات.
- (5) استسمنت ذوارم مثل اعتقدت المتورم سميناً، والسراب ما يترأى في القيعان عند اشتداد الحر ويحسبه الظمآن ماء، والنوى عجم التمر.
- (6) وإن تقل مثل حساني، يضرب المثل لمن يستهون الصعب إذا لم يمارسه فيقال إن ظننته بارداً فاجعل يدك فيه.
- (7) ناصر، رجل استنجدوه في إحدى معاركهم فأنجدهم، وحين حميت المعركة فروا عنه وبقي في ميدان القتال يقارع الأعداء وحده.

حُبُّ السَّلامَةِ قد يُرْنِي إلى عَطَب
حُبُّ السَّلامَةِ لو يُنْجِي لكان نجا
قد عَمَّقُوا حُفْرَهُمْ لِيَسْلُمُوا فَعَدُّوا
وما نَجَوْا يومَ لَكَبْنِيبَ إذْ هَرَبُوا
لَقَدْ تَرَكْنَاهُمْ صَرْعَى تَخَالَهُمْ
فَتَلِكْ دُورُهُمْ بِالظُّلَمِ خَاوِيَةً
كم غَادِيَةٌ مِنْهُمْ تَشْوِي الجَرَادَ لَدَى
وكم فُوتَةٌ مِنْ ثَكْلَى وَأَرْمَلَةٍ
غَدَاؤُهَا حُمُرُ الْغَابَاتِ تَحْنُذُهَا
إِنَّا بَنِي الْحَاجِّ أَبْطَالُ ذُوو كَرَمٍ
مَهْمَا نُسَالِمَكَ تَعْلُ النُّجْمُ مُبْتَهِجًا
أَيَّانَ تُؤَمِّتُكَ تَأْمَنُ غَيْرُنَا وَإِذَا
مِنْ ذَا يُسَاوِي بَنَاءَ أَعْدَاءِنَا كَرَمًا
مِنْ ظَنِّ أَنَا سَوَاءٌ جَاهِلًا فَلَقَدْ

وَالْعَارُ مَنْ كَانَ بِالْأَيَّامِ مُسْتَتِرًا
مِنْ بِالْبَسِيقِي بِالْحَفِيرِ قَدْ حَضَّرَا⁽¹⁾
كَالْكَبْشِ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ حَفَرَا
عَشِيَّةً وَالسَّمَاءَ أَرْسَلَتْ مَطَرًا⁽²⁾
نَخْلًا تَرَاهُ بِمَجْرَى السَّيْلِ مَنْقَعَرًا⁽³⁾
فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى بِهَا لَهُمْ أَثَرًا⁽⁴⁾
كُنَّارَ تَسْرِي إِلَى أَوْكَارِهِ سَحَرًا⁽⁵⁾
وَأَيُّمٍ وَيَتَامَى عَالَةً فَقَرًا⁽⁶⁾
جُوعًا وَفِي الْكُجِّ تَسْتَسْقِي لَهَا الْمَطَرًا⁽⁷⁾
نَحْنُ الْهُدَاةُ الْكُفَاةُ السَّادَةُ الْأَمْرَا
وَإِنْ نَعَادِكَ يَوْمًا تُلْفَ مُنْخَدِرًا
لَمْ تَجِدِ الْأَمْنَ مِنَّا لَمْ تَزَلْ حَذِرًا
فَهَلْ تُسَاوِي بِخَيْلٍ شُبُّقَ بَقَرًا⁽⁸⁾
سَاوَى بَنَخْلِ الْقُرَى الْيَتُّوعَ وَالْعَشْرَا⁽⁹⁾

(1) البسِيقِي، بئر جرت به معركة بينهم وبين كنت وكان النصر حليف بني الحاج. وقد حفرت حول الحي خندقاً في ذلك اليوم حتى تحمي به مواطنيها ولكن دون جدوى. وحدث ما حدث.

(2) لكبنيب، مكان حدثت فيه موقعة بين كنت وخصمها.

(3) منقعرًا: ساقطاً منجذلاً.

(4) دليل على سحقهم بالكامل.

(5) كنَّار: قبيلة من قبائل الفلان المنتشرة من موريتانيا إلى تشاد والتي يبلغ تعدادها حوالي 17 مليون نسمة وترجع أصولهم إلى جيش عقبة بن نافع الفهري.

(6) فوته: هي فوته جالون، وهي سلسلة من الجبال بمنطقة السنغال.

(7) تحنذها: تشويها، والكج: موضع بالسودان الغربي.

(8) الفراء: بكسر الفاء الحمار.

(9) هنا افتخار بالقبيلة، وجاء بمقارنات وقال: كيف يساوي الأسد بالذئب، فكأنه يقول شتان بين الثرى والثريا.

وَمَنْ يُسَاوِ بِنَا أَعْدَاءَنَا فَلَقَدْ
فَسَلَ بِنَا وَبِهِمْ إِنْ كُنْتَ جَاهِلُنَا
هُمْ يُعَادُونَ أَهْلَ الْحَقِّ عَنْ سَفِهِ
وَنَحْنُ نَزْجِرُ لِلْعَاصِي وَنَهْجُرُهُ
يَرْضَوْنَ جَهْلَ أَبِي جَهْلٍ وَنَخَوْتُهُ
وَبَغْضَ آلِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَرَزُّوا
وَبَغْضَ أَنْصَارِ خَيْرِ الْخَلْقِ شَيْمُتْهُمْ
قَوْمٌ إِذَا اثْتَمِنُوا خَانُوا وَإِنْ حَكَمُوا
أَوْ وَاْعَدُوا أَخْلَفُوا أَوْ حَدَّثُوا كَذَبُوا
مِثْلُ الْيَهُودِ بِقَتْلِ الْأَنْبِيَاءِ هَلَكُوا
أَلَا فَلَا أُمَّةَ بِالذَّنْبِ قَدْ هَلَكْتَ
ثُمُودٌ قَدْ هَلَكُوا عَنْ بَغْيٍ عَاقِرِهِمْ
نُتَاهِمٌ صَالِحٌ فَخَالَفُوهُ كَمَا
وَقَوْمٌ لُوطٍ أَتَوْا مَا قَدْ أَتَوْا سَفَهًا
وَيَقْطَعُونَ السَّبِيلَ أَيْتَمًا سَلَكُوا
وَأَهْلُ مَدْيَنَ لِلْمَكْيَالِ قَدْ نَقَصُوا
وَيَنْقُصُونَ عُهُودَ اللَّهِ قَاطِبَةً
هَذَا وَفِيهِمْ رَجَالٌ مُؤْمِنُونَ كَمَا

سَاوَى بِأَسَدِ الثَّرَى الذَّنَابِ وَالنَمِرِ⁽¹⁾
وَالْحَالِ أَصْدَقُ مَا اسْتَنْبَأَتْهُ الْخَبْرَا
وَنَحْنُ نَنْصُرُ مَنْ لِلْحَقِّ قَدْ نَصَرَا
وَهُمْ يُجَلُّونَ مِنَ الْفَسِيقِ قَدْ جَهَرَا
وَيُبْغِضُونَ عَلِيًّا مِنْ عَلا مُضَرَّارَا
مِنْ الْوَلِيدِ وَمِنْ يَزِيدَ مَنْ فَجَرَا
وَسَمَ النِّفَاقِ عَلَى أَخْلَاقِهِمْ ظَهَرَا
جَاؤُوا وَإِنْ خَاصَمُوا أَلْفَيْتُهُمْ فُجَرَا⁽²⁾
وَمَنْ تَقَلَّدَ عَهْدًا مِنْهُمْ غَدَرَا⁽³⁾
لَأَنَّهُمْ قَدْ رَضُوا بِزَلَّةِ الْكِبَرَا⁽⁴⁾
إِلَّا وَيَأْتُونَ مَا أَتَتْهُ مُشْتَهَرَا
وَهُمْ عَتَوْا وَعَثَوْا وَكَلُّهُمْ عَقَرَا
نَهَى ثُمُودَ وَكَانُوا مَعْشَرًا فُجَرَا
وَهُمْ يُسَاوُونَ ذَاتَ الْبَعْلِ وَالذِّكْرَا
جَهْرًا وَيَأْتُونَ فِي نَادِيهِمْ نُكْرَا
وَكُنْتَ قَدْ نَقَضُوا أَرْزَاقَ كُلِّ وَرَى
وَيَنْقُصُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كُلَّ غَرَى
فِي آلِ فِرْعَوْنَ مَنْ إِيْمَانُهُ سَتَرَا

(1) الشرى: موضع تكثر به الأسود.

(2) (3) (4) يقول شاعرنا إنهم مثل اليهود الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة بسبب قتلهم للأنبياء
لأنهم قد رضوا بما فعل آباؤهم من تلك الأفعال الخسيصة من غدر وخيانة. واليهود مجبولون
على مثل هذه الأفعال الدنيئة.

الفصل الثالث

الصراعات القبلية شهراً

الصراعات القبلية

فج الشحر

فرضت قساوة الصحراء على سكانها التكتل، والقبلية، والأحلاف، وهو طابعها العام والمميّز لها، فنجد كل قبيلة تتحالف مع الأخرى وتشارك معها في الماء والكلاء، وتنهض كل واحدة منهما لنجدة الأخرى، إذا ما تعرضت لخطر داهم. وعادة ما يكون النزاع بين أفراد القبائل على الماء، والكلاء، أو إذا تعرض أحد أفراد القبيلة لأي اعتداء من قبيلة أخرى، وقد تنشأ بينهم حروب تطول، أو تقصر، ولكن عادة ما تتدخل أطراف أخرى للإصلاح بينهم، وتتبادل القبيلتان سيلاً من الشتائم، وتذكر كل قبيلة ما كانت عليه الأخرى من أعمال مشينة، لا تليق بمكانتها، وتصغرها في نظر القبائل الأخرى. والمعبر عن آراء القبيلة هو مديع الصحراء ورجل الإعلام الشاعر الصحراوي.

وهذا اللون الذي نقدمه يعكس صراعاً بين قبيلة كنتة وقبيلة كلنتصر. وكان هذا الصراع في أوائل القرن العشرين بحيث كان بعض من قبيلة كنتة يقطن تغارست والبعض الآخر على نهر النيجر، وجزء ثالث منها حول الآبار من الناحية الشمالية.

إن قبيلة كلنتصر موطنها بلدة قندام، التي تقع إلى الغرب من مدينة

تنبكت وتبعد عنها بحوالى خمسين كيلومتراً وقد زرتها عام 1985 م.

أسباب الصراع:

يُقال أن فتى من قبيلة كنتة، سافر إلى قندام، فصادف الفتى الكنتي رعاة من كلنتصر، وطلب منهم شاة ليأكلها، فرفضوا طلبه وحاول أخذها بالقوة، فما كان من الرعاة إلا أن أوسعوه ضرباً، وعندما سمع أهل قبيلة كنتة الخبر، عدوا ذلك إهانةً لهم، فما كان منهم إلا أن نهضوا لقتل الرعاة وأدركوهم على بئر يقال له (أنجبا) فقتلوا بعضهم وفر الآخرون، وعندما ناهت الأخبار إلى مسامع قبيلة كلنتصر وما تعرض له رعاتهم جمعوا أحلافهم من القبائل وتوجهوا صوب مضارب قبيلة كنتة، للانتقام، والتقى الجمعان في موضع يدعى (تغاوغوين) ودارت معركة حامية الوطيس، كان النصر فيها حليف قبيلة كلنتصر، وقتل في هذه المعركة أمير كنتة وقائد جيشها، وغنم كلنتصر غنائم كثيرة، إلا أن نار الهزيمة ازدادت اشتعالاً في قلب قبيلة كنتة فبينما كانت قبيلة كلنتصر راجعة بعد المعركة لحقت بهم قبيلة كنتة في بلدة (أنبكسا) وتجددت الحرب بينهما فانتصرت قبيلة كلنتصر للمرة الثانية على كنتة.

وكانت تغذي هذه الحرب النعرات والعصبية القبلية، والمنتصر في هذه الحروب مهزوم، فبدلاً من أن يوجهوا أسلحتهم إلى صدر المستعمر أخذوا يوجهونها إلى بعضهم البعض، وبدلاً من أن يتغنوا بأمجادهم التليدة الزاهرة أخذوا يتقاتلون متعللين بأثفه الأسباب. فهذا أحمد البكاي بن محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي والمتوفى عام 1865م بمدينة (ساردين) ينظم قصيدة طويلة يهجو فيها كلنتصر نوردها كنموذج من نماذج الهجاء الذي كان منتشراً في جنوب الصحراء فيقول:

من بحر البسيط:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

جالوت والتزموا الأحراث والبقر
في الحرب والضرب لا تُبقي لكم أثراً
على أذالم ولم نذكر لكم خبراً
لغير من يبتغي لنا به الخوراً⁽¹⁾
ولم تُبالِ بمن جفا ومن هجرا
تدّى ومن برّ في الأقوال أو فجرا
وغرّكم تركنا إياكم غرّاً⁽²⁾
على العزيز الكريم الخالق الصّوراً
وحربنا دونه تمالت الكبرا
عشرين منكم كراماً عندكم غرّاً⁽³⁾
عمت نوائره الأهلينا والنظرا
ولم تميّلوا فتطفوا الشرّ والشررا
قتلاً ذريعاً يُذيق الظّالم الصّيراً⁽⁴⁾
داراً فداراً فمرعى ناعماً يضراً
سوق النّعام يُساقى السّهل والوعراً
نفي الضراغم من أوجارها...
وبيس بنك عراتاً مجوعاً فقراً⁽⁵⁾

كفوا عن الحرب لستم أهلها أبني
إنّا رجال بني الكنتي صولثنا
نضدّ عنكم إذا تؤذوا ونترّككم
ونستلين لكم واللين شيمثنا
ونأنف السّب سبكم وذمكم
ومن أقام على صداقة ومن اع
حتى إذا مارّ شحم بين أضلعكم
قاتلثمونا بلا جرم مكابرة
وبعد قتلكم لمنع قاتلنا
كفى من الهون أن تبوا بصاحبنا
فلم تقيموا حدود الله في حدث
ولم تليثوا بقول كان أو عمل
لما أبيثم وجدتم غبّ قتلكم
دناكم من دياركم نتبعها
نُسوقكم بأعاليها وأسفلها
نطارد الجمع والفريد مُنفراً
حتّى بلغنا بكم تنبكت أرضكم

(1) الخور: الضعف.

(2) مار: تحرك، وهو كناية عن التجبر.

(3) قوله تبوا بصاحبنا المعروف باء فلان بدم فلان قُتل به الفرر الأشراف.

(4) نعت الصبر بعصارة شجر مر، وقيل «الصبر مفتاح الفرج».

(5) بيس بنك: دشرة إلى الشرق من تنبكت، شهدت منازعات بين قبيلة كلتصر وكننة.

وطبلكنك وبتكذل بلدته
وساحل البحر لم نترك بساحته
وجزئتم عامدي فرش معاقلكم
لما استقرت بفرشكم مجالسكم
إذا بخيل عليها الأسد غاشية
ترخي أعنتها للموت خائضة
أطفال صدق تربت من أكابرها
توارثته من الأجداد ليس لها
ولا جبان ولا نذل ولا بخيل
فبددت كلغزاف وشيعته
وايكتاون ومن والاهم نهبت
من جانب الحوض منازلها كرم
جاءت تدافع بالأيدي بنادق في
على جياذ محنات مسومة
فلم يقم لوجوهها ووجهتها
فبعد يومين أو ثلاثة رجعت
وخلفتكم رعاعاً لا غناء لكم
وجاءت الخيل نحو الشرق تركلها
تحذو بجيش به الأبطال نائحة

أمست خلاء فلم نبق بها أثراً⁽¹⁾
من الثعابين لا سمعاً ولا بصراً
ورأس ماء كر لثفر والنقرا⁽²⁾
وخلثم بطئنا في جنبنا حذراً
من جانب الغرب لن تبقي ولن تذراً⁽³⁾
بحر المنية لا تخشى بها ضرراً⁽⁴⁾
في المجد لا ترتضي لمجدها غيراً⁽⁵⁾
جد هزيل ولا من يتبع البقرا⁽⁶⁾
ينحط عن فتى العلياء منكسراً
وضيروا شذراً بأرضهم مذراً
أموالهم زمر أكرم بها زمراً
يوم الرخا وعن الأقران لم تحترا
أجوافها من صنيع الزوم وما نضراً
مثل الخذاريف ترمي الفارس الخطراً
من نجل جالوت إلا جاء منتشراً
والبسثكم وراها الشمس والقمر
سوى رعاية ما استطار وانتشراً
ببني الوجوه حسان الهيئة الأمرا
نوح الشكالي تباري الشادي الضجرا⁽⁷⁾

-
- (1) طبلكنك وبتكذل: قرية صغيرة إلى الشرق من تنبكت، جرت فيها معارك بين كلنتصر وكنته.
(2) فرش: جبل بين تنبكت وقندام مررت به. أما رأس الماء فهو مكان شمال بلدة قندام.
(3) (4) يحذر أعداءه ويفتخر في آن واحد من أن فرسانهم كالأسود على جيادهم العربية الأصيلة تقدم عليكم من ناحية الغرب تفني أولكم وآخركم.
(5) يذكر الشاعر أعداءه على أنهم تربوا على الصدق والإباء ولا يرضوا بالظلم وإن طال الزمن.
(6) هذا البيت أراد به الشاعر تصغير خصمه.
(7) الشادي: المغني.

فبددتكم كفعل الأولين ولم
فقتلت بخيامكم صدوركم
وصيَّرتكم بها هلكى كأنكم
وحملت بَعْدُ بالطبول أبعرة
لما تولت وما استقصى أخو كرم
قفوتموهم بأضعافٍ مضاعفة
من بعدما اقتسموا منكم غنائمهم
إذا بكم تلقطون كل منخزل
فتقتلوهُ وقد ريئت أوائلكم
فأنحاز آخرهُ وارتدَّ أولهُ
فلم تفيئوا إلى صدرٍ ولا ذنب
غارات حقٍ من الرحمن ليس لها
فقتلت منكم سبعون مع مائة
وتابعتم رجائنا تطاردكم
حتى جلوكم وقبل غير واحدة
عن العذارى وأموالٍ منعمة
هذا وأنتم كمثّل الشاة تتبع ما
.....نعجل بقتلكم
هل تستوي ألفٌ غير في مزابلها
أم هل يُوازي بعبد السوء في ملأ
فداء ديتِه ترَبُّو على مائة
لولا القصاصُ الذي في النور جاء كما

(1)

(2) الصيت بالكسر: الشهرة والذكر الحسن.

تلو على غير من من جمعكم حُشرا
والمال أبقت لمن... ظفرا
أعجازُ نخلٍ أثيلِ النبتِ منقعرا
ثلاثةً وأبت أن تنثيف الشعرا
والحرُّ لا يعلق الأدران والغمرا
وقد تقلل من مجموعهم كُثرا
وأيقنوا أنكم لم تقتفوا أثرا
عن السوادِ ضعيف القلب مُنسترا
وجيشنا صدره قد حلّى الخُمرا
فانفلَّ عسكركم بالذلِّ مُختمرا
كأنكم ترفضون خلفكم بعرا
إلا اللجاء وأنتم للّجاء حُفرا
بغير من بالبراري ساقطاً نثرا
رجال صدق يوم الوغى ضُبُرا
جلوكم عنكم بقهر من قهرا
تطمو بكثرتها الأحجار والشجرا
من السباع تولّى هارباً خدرا
إذ لستم كلُّكم أكفاء من غُديرا⁽¹⁾
مع ضيغمٍ صيئةً استنار وانتشرا⁽²⁾
مُهدبٌ عن صدور الناس قد صدرا
وذاكم يعدُّ في استقائه عشرا
قلنا ابعثوا عشرة فدى لمن ثُرا

فقال منها لكم للحق قائلكم
والله لا نفتدي بعيننا بشراً
فاستكبرت قومكم عن حق مالكم
ونحن نخوتنا قد رضّ قسوتها
دليلُ ذاك تعافينا وجرأتكم
قطعتُم السبل بعد القتل وانتشرت
ففرقت فرقة منكم أراجسها
بإثر خمسٍ وعشر قومنا نهبت
فبعد خمسة أيام تُطالبُها
تذكرت بعدما قلت مآكلها
كفعل ذئب الغضا لم يترك بلداً
فلم نبالي ولم نعبأ بجيشكم
قد غرّكم تنكر يكفّ وشيعتُهم
أنكم أنتم الذين قد نصروا
وأضحكت قومكم فيكم برابشكم

وقد قضى الله في الأمور ما قدرا
لو كان في عزّه وملكه عُمر
قفوا لإبليس من بربه كَفَرَا
شرع العزيز فما أبقى لها وضراً⁽¹⁾
ونحن أخرى بأن نباي وأن نترأ⁽²⁾
رياح ظلمكم فأثرت أثراً
والقائد أنكنّ في الأجلاف مستترا⁽³⁾
من قومكم قطعة تشفى بها الوحرا
أو شيعها نكصت عدو الظليم ورا⁽⁴⁾
طعم المخيض فشدت نحوه الأزرا
له به شبع يقضي به الوطرا
إذ أنتم ضعفاً في جليلة الأُمرا
إذ يكذبون عليكم بيئكم مُحضرا⁽⁵⁾
نبينا حاش من به النبي نُصرا
أعداءكم خفيةً والحق قد ظهرأ⁽⁶⁾

(1) الوضر: الوسخ.

(2) يباي نفخر، ونتر: نطلب الوكر.

(3) أنكن: اسم تارقي، وهو بطل من أبطال وقائد من قواد قبيلة كلنتصر قارع الفرنسيين في كثير من المواقع والحق بهم هزائم نكراء شهد له بها الأعداء قبل الأصدقاء إلا أن يدي الاستعمار طويلة فقتل بخيانة بعض من أبناء جلدته المتعاونين مع المستعمر. والأجلاف جمع جلف وهو غليظ القلب.

(4) شيعها: قربها، ونكصت: رجعت وتقهقرت.

(5) تنكريكف: قبيلة من قبائل توارق عرب الصحراء الكبرى. من أبناء أولاد أولاد، وقبائل التوارق ينقسمون بداخلهم إلى عدة أفخاذ من بينهم فخذ أولاد، وهم أبناء عمومة توارق مدينة غات بليبيا.

(6) البراييش: مجموعة قبائل ائتلافها سياسي تضم أكثر من عشرين فخذاً من بينها فخذ أولاد =

حتى جعلتكم كيودكم وجدكم
فمن أراد لها الدمار دمه
سلطتم بذنوبنا وغفلتنا
فلن نفارقكم حتى تلين لنا
حتى تفوا وتدوا من البرابش من
قتلتم أربعين من كماتهم
لأننا وهم كمثل جارحة
ثم الصلاة على المختار من مضر
وآله ثم صحب تابغوه على

فينا كنانة لا جحداً ولا نكراً
رب السموات تدميراً كما سطرنا
على حمانا كلاباً تأكل العذرا
منكم رقاب تحاكي الصخر والحجرا
صيرتكم دمهم بظلمكم هذرا
ونحن أجدر من يطالب الوترا
متى اشتكى بعضها فبعضها نفرا
.....(1)
حق فما عدموا الأعوان والنصرا

* * *

= سليمان والعلاونة وأولاد ناصر والرحامنة. وهذه الأفخاذ لها امتدادات في ليبيا. ويختص فخذ أولاد سليمان في البرابيش بالزعامة والعلم، وكانت ولا تزال لقبيلة البرابيش المكانة المرموقة في جنوب الصحراء ولا يمكن لأي امبراطورية أن تقوم لها قائمة ما لم تكسب ود البرابيش. وقد ساندت قبيلة البرابيش الملك سني علي امبراطورية سنغاي والتي تمتد من موريتانيا إلى نيجيريا في حروبه ضد المتمردين وفي فتوحاته للقبائل الوثنية. وسني علي يرجع أصله من أسرة ليبية نزحت من طرابلس الغرب وهي أسرة ضياء ونشرت الإسلام في تلك البقاع وأعجب أهالي البلاد بمكانة وأخلاق هذه الأسرة ونصبوا أحد أبنائها حاكماً عليهم، هو سني علي، وسني بمعنى حامي السنة.

(1) غير مقروءة في المخطوط

وقال أيضاً، يجيب أحمد سالم بن السالك اللمتوني قصيدته التي يقول فيها:

أرقت لبرق العارض المتهلل عيناك فاتهمتا بدمع مسبل
بهذه القصيدة.

بحر الكامل

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

وسنان من طول السرى في الهوجل ⁽¹⁾	طرقت نفيسة والدجى لم ينجل
فأرقت لا للعارض المتهلل ⁽²⁾	باتت يمثلها لعيني طيفها
قُرشية ومن الطراز الأول ⁽³⁾	غيداء كُنْتَأوية أموية
عجماء لم تنبل ولم تتنبّل ⁽⁴⁾	لا من يعيش ولا دولحاجية
فأب إلى عدنان غير مُظلل	لكن من الكنتي ينميها أب
بالقرب كانت أم بأرض الموصل ⁽⁵⁾	ذم على من يبتغيه وصالها
لكن لعزة وصلها لم توصل	فخر الفتى في وصلها لو ناله

(1) الدجى: جمع دجية الظلمة، والوسنان: النائم، والهوجل: المغارة البعيدة لا علم بها.

(2) الطيف: الخيال.

(3) الغيداء: المثنية ليناً.

(4) يعيش: قبيلة من الحسانيين، ودولحاج: قبيلة أحمد سالم بن السالك، ولم تنبل: لم تكن نبيلة ولم تتنبّل: لم تتكلف النبل والنبل النجابة.

(5) الموصل: مدينة العراق.

الفصل الرابع

شجر الرثاء

الرتاء

الصحراء دائماً يتفاعل بأحاسيسه ومشاعره مع الواقع المحيط به. فالرتاء لون من ألوان الشعر، عبّر به الشعراء عن عواطفهم، فشاعر الصحراء مرهف الإحساس رغم أنه يعيش في بيئة بالغة القسوة.

وهذه القصيدة التي بين أيدينا للشاعر سيدي عالي التنبكتي، يرثي فيها صديقه يحيى الونكري الذي فارقه، وكأنه يقول بأن الموت سرق أعلى صديق، وهو يخاطب الحاضرين ويعظهم في نفس الوقت، بأن الدنيا دار فناء، والآخرة دار بقاء، وأن الذي يسير في الدنيا دون أن يلتفت للآخرة فإنه من الذين طمس الله على قلوبهم. ويرثي صديقه الونكري ويعدّد شمائله، وعلمه، الذي نفع به العباد، ويخاطبه بعبارة صريحة بأن الأنام كلهم يشهدون لك بالتقوى والعلم. ومن شدة لوعته عليه يقول له: حُزّت الشهادة، ومن المَرَضِيّ عنهم لأن شيخهم التجاني راضٍ عنه. ومن هنا ندرك أن الشاعر والمَرِثِيّ من أصحاب الطريقة التجانية المنتشرة في السودان الغربي.

ويختتم حديثه بالصلاة على رسول الله «صلعم».

فالفقيه، والمؤدب، والعالم، والمدرّس، يعتبر في السودان الغربي، وفي غيره من المواقع مركز إشعاع علمي، يبّد بعلمه دياجير الجهل، الذي

ينعت بالظلام، وفي مدرسته المبنية بأعواد القصب أو خيمة الشعر، أو تحت شجرة الطلح، المنتشرة في صحراء السودان الغربي أو في مسجده المبنى بالطين، يدرّس اللغة العربية والقرآن الكريم والفقه. فعندما يُتَوَفَّى فقيهٌ يترك فراغاً واضحاً، حيث يعتبر موته خسارة لهم، وتتحرك مشاعر الشاعر لهذا الحدث ويهرع أصدقاء العالم وتلاميذه يرثونه بقصائد تعبّر عما يخالجه من آلام وأحزان لفقدانهم علماً من أعلام المنطقة.

نبذة عن حياة

الشيخ محمد محمود الأرواني

عالم وأديب من علماء تنبكت، ولد عام 1911 م بمنطقة أزواد شمال تنبكت، وكان ذا شخصية وهّية. تربي تربيةً إسلاميةً ودرس على علماء عصره، وظهر نبوغه الفكري. ولي القضاء في تنبكت، وهو منصب رفيع لا يتولاه إلا من كان متمكناً من العلم، وحسن التدبير. زار مصر في عام 1954م وقابل فقيه العروبة وأفريقيا الرئيس جمال عبد الناصر، والعلامة محمد محمود الأرواني له عدة مؤلفات جلية في شتى فروع المعرفة.

تعرّض للسجن من قبل موديويوكيتا رئيس جمهورية مالي السابق، عام 1960 م وأطلق سراحه موسى تراوري بعد انقلابه العسكري، وولاه قضاء تنبكت، واستمر في هذا المنصب إلى أن تُوفي عام 1973 م بمدينة تنبكت. تعرّفت على ابنه عادل الأرواني عام 1985 م عند زيارتي الأولى لمدينة تنبكت، وزرته في بيته، ونشأت بيننا صداقة، ولمست في هذا الشاب الجدية، والصرامة والعلم، والخلق، فهو أديب مفوّه من أدباء تنبكت بالرغم من حداثة سنه.

من أشعار الأرواني:

وشاعرنا الأرواني يرثي بعض أخوانه، ويذكر الحاضرين بأن الموت سنّة

اللّٰه في خلقه كل إنسان لا بد أن يرتشف من ذلك الكأس، وهنا شبّه الموت بالكأس المملوء بالماء، ونحوه وكل واحد يرشف هذه الرشفة إن كان عبداً أو سيداً فكأنه يستمد كلمات هذا البيت من البيت الذي يقول:

الموت كأس كل الناس ذائقه والقبر دار كل الناس ساكنه

ويظهر في هذه القصيدة القصيرة انتقاء الكلمات، وروعة في الأسلوب، والبلاغة في التصوير واستعارة، وكتابة فهي تنم على ضلوع صاحب القصيدة في اللغة العربية وبلاغتها، فهو تصوير بليغ.

وختم قصيدته بأن الموت لا مفر منه، فحتى سيد الكائنات محمد بن عبد الله انتقل إلى جوار ربه، وهو خير البرية، فالموت لا يفرق بين البشر. ولكن شاعرنا الأرواني لم يفلت من الكأس الذي رثا به بعض أخوانه. وما هي إلا فترة من الزمن حتى تجرّعها، وبموته فقدت منطقة غرب إفريقيا علماً من أعلامها، في العلم. وقد رثاه عدد من علماء غرب إفريقيا، نورد نموذجاً منها خشية الإطالة على القارئ. فهذا الفقيه الورع الزاهد الشيخ عيسى يرثي العلامة محمد محمود الأرواني بقصيدة تحتوي على خمسة عشر بيتاً يصوّر فيها الشاعر أن الدائم هو وجه الله تعالى أما البشر فإلى زوال طال الأمد أم قصر. ويبين شاعرنا أنّ فقد العالم من الصعب تعويضه، وضرب مثلاً بالعلامة صاحبنا الذي قال عنه أنه لم يترك من يوازيه في العلم، وعرفه بالحبر الراسخ قدّمه في العلم وهو الذي يحلّ مشاكل المنطقة من فتاوى وغيرها.

وهذا نموذج من قصيدة للشاعر محمد بن محمد بن إبراهيم، يرثي فيها شيخه حما النحوي.

وفيها يذكر شمائل شيخه، من علم، وأدب، وعدل، وبشاشة الوجه، وحسن المعاملة ويطلب من الله أن يسكنه فسيح جناته، بما أسداه للعلم وأهله من خدماتٍ جلية يذكرها الذاكرون من بعده.

وصدق رسول الله «صلعم» حين قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو ابن صالح يدعو له، أو علم ينتفع به».

من البحر الوافر:

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

بَكَثَ عَيْتِي بدمعٍ من صَدِيدِ	على متواضعٍ ورعٍ عَفِيفِ
يَلَاقِي بالبشاشة من أتاه	وفعل ملاطفٍ ندبٍ شَرِيفِ
وَيُقْبِلُ إن به ضَعِيفُ أَلَمِ	بخذ ساطعٍ حسنٍ طَرِيفِ
أرقت لحزن مهلكه بليلِ	بُعِيدُ الصبح في أَسَفٍ كَثِيفِ
ولكن كيف يبقى بين خلقي	قليل الخير مع دهرٍ عَنِيفِ
أياً من قد قضى بالعدل فيه	أَدِمَ سُكْنَاهُ في ظِلٍّ وَرِيفِ
وَنَقَّ ثِيَابَهُ بِرَضَى وَعَفْوِ	وَمَحَوِ الوِزْرَ مع رَفْقٍ لَطِيفِ
وَنَوَّزَ قَبْرَهُ بشعاعِ نَوْرِ	بدا من نورٍ ذي الشرف المنيفِ

* * *

قال محمد محمود بن الشيخ الأرواني في رثاء بعض أخوانه:

البحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلين متفاعلن متفاعلن

الْمَوْتُ حُكْمُ اللَّهِ فِي الْأَجْناسِ	لا بد للمخلوق من ذا الكأسِ
لَمْ يَنْجُ مِنْهُ وَالِدٌ لَا وَلَا	مولوده في الناس ليس بناسِ
وَأَحَقُّ بِالْمَرْءِ الْكَبِيرِ رَجُوعُهُ	عن حبه طيب البقا لليأسِ
فَمَالَنَا كَلًّا إِلَى ذَوْقِ الْفَنَاءِ	ورحيلنا كلاً إلى الأرماسِ
لَكِنْ فَقَدْ حَفِيدٌ شَيْخِي حَامِدِ	أشجائه ضاقت بها أنفاسي

وجبال صبري دكها أحزائه
ولأجل أجر الصبر أضبر داعياً
لا تجزعوا أخواننا حاشاكم
أحمد صبراً لفقد محمد
وصلاة ربي والسلام على النبي
إني به متأله به آس
أهلي لفضل الصبر صبر راس
أنتم رؤوس الناس يوم الباس
فمحمد قد مات خير الناس
هو سيد الكونين في الأجناس

العالم العلامة محمد محمود الأرواني المالي الشيخ، كان قاضياً في
تنبكت، توفي في سنة 1972م فرثاه الفقيه الورع الزاهد الشيخ عيسى
بهذه القصيدة:

البحر الوافر:

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

ألا إن الدوام من المَحَال
وكل فتى وإن طال الزمان
ولكن فقد أهل العلم شيء
وهذا الحبر لم يترك نظيراً
وذاك محمد محمود سعيّاً
فمن ذا للقضاء وللفتاوى
له القدم المعلى في العلوم
وهئته لهذا القطر كلاً
فليس مُصيبة فقد لشيء
ولكن المصيبة فقد شيخ
ويا تكروراً صبراً قد دُهِمناً
وليس يدوم إلا ذو الجلال
سئقل لا محالة للمال
كبير عند ذي دين وبال
فإننا راجعون لذي الكمال
حباة الفوز فضلاً ذو النوال
وحل المشكلات بأرض مالي
سمي لا يجازي في المعالي
يعين من اعتراه بكل حال
من الدنيا ولو فوت اللئالي
يفوت بفوته علم الحلال
بدهية كأمثال الجبال

ويا أروانُ يا تنبُكْتُ صبراً فأجر الصبر أفضل في المحالِ
حباؤه الله بالرضوان فضلاً وأسكنه الجنان بلا نكالِ
بجاء شفيعنا المبعوثِ صلّى عليه إلّهُنا أمدّ الليالي
والِ ثم أصحّاب كرام وتابعهم بإحسان وتالِ

* * *

قصيدة الفقيه الشاعر سيدي عالي التبكتي، يرثي يحيى الونكري: من البحر البسيط:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

ما الدار دار الدُّنا داراً لذي وَجَلِ كلاً وليس نعيمُها لذي أملِ
بل هي دارُ عناءٍ وابتلاءٍ ولا ينفكُ ساكنُها من كثرة الزَّلَلِ
يُمسي الحبيبُ سروراً بالمحبِّ وفي فجرِ الغداةِ إذا بالخطبِ والجللِ
لَمّا نَعَوْا سيدي يحيى الشقيق دَهْت نبي الكروبِ إلى أن غبْتُ عن وهلي
أصبحْتُ يومئذٍ خلواً حليف أسي أقولُ سُبْحان ربي الحيّ في الأزلِ
الله أكبر هذا وعدُ خالقنا ووعدُهُ صادق من دُونما خللِ
راجعْتُ ربي إلهي ثم قلت إذا إنا إلى الله راجعون بالوجلِ
لعل رحمته تعمُّنا وكذا الصر لاة من ربنا تأتي على مهلِ
فليتنسب أدعياء الفضل كيف رَأوا فقد تغَيَّب عنهم صاحبُ النحلِ
وليفخر اليومَ قومٌ بالسَخاءِ ولا خوف فيحيى عديم النَّدِّ والمَثَلِ
لو عاش لم يطرقِ الأسماع ذِكْرُهُمْ ولو رَأوا جُوده ولَّوا من الخجلِ
أجل فقد مات هذا الونكري أسفاً وأوحشت أرضنا في العلو والسفلِ
فكل نفس لعلياه حَكَت وشَكَت وكل عين بَكَت من سائر المللِ
ولا غرابة في هذا فإن له جمرَ الشمائل أشتاتاً بلا حيلِ

منها السخاء ومنها الحلم ثم تفي
عدد صنوف المروءات بأجمعها
يا لائماً في موالاة الحبيب فلا
لو كنت تعلم ما يحويه من كرم
لكن من لازمي قبول مغيرة
فاذهب فقد أثنت الأنام كلهم
حزت الشهادة ذات الجنب تشهد لي
يكفيك مرضاة شيخنا التجاني وذا
طوبى لكم حيث جاؤزتم سميكم
فالله يغفر ذنبكم ويرحمكم
يا آل ونكري هذا الرزء رزؤكم
عزيتكم يا إمام القوم بأب ومن
ثم الصلاة على محمد وعلى الص
والآل والصحب والزوجات كلهم

صبر جميل تواضع بلا دغل⁽¹⁾
ولا تخف لائماً في ذاه ولا تسئل
تعديل فنانك في غياهب السبل
لما تأتي لكم عتبي أخوا العذل
لأن أعذاركم أولى من الجدل
عليك إذ هم شهود الله والرسل
مع السقام الذي قاسيت والعلل
كاف لكل تريد صادق العمل
فتم فانت عروس نام في الحجل
ويدخلنكم الجنان ذا الظلل
لكن غيركم قد غاص في الوحل
فصل الخصام له قدماً وذاك جلي
لديق فاروقنا عثمان ثم علي
والتابعين منا وكل ولي

* * *

(1) الدغل: العيب في الشيء يفسده.

من بحر البسيط:

يا لَهْفَ نَفْسِي مِنْ هَذَا الْمَصَابُ لَقَدْ
يا لِلْمَدَارِسِ مِنْ يُتَمِّمِ وَمِنْ وَصَبِ
إِنَّ الْعُلُومَ لَتَبْكِيكُمْ بِأَكْمَلِهَا
أَصُولَ مَذْهَبِ مَالِكٍ وَعَمْدَتَهُ
يا لِلخَلِيلِ وَا نَصَّ الرِّسَالَةَ قَدْ
وَأَصْبَحَ النُّحُو وَالصَّرْفُ اللِّذَانِ هُمَا
يا لَهْفَ حَضْرَتِنَا وَيَا وَظَائِفُنَا
يا شَمْسَ فَضْلِ زَمَانِنَا الْمَنِيرِ وَا
قَدْ غَبَّتْ عَنَّا وَلَكِنْ نَوْرُ بَهْجَتِكُمْ
قَدْ غَابَ طَاهِرُنَا وَغَابَ عَارِفُنَا
رَبِّيتُنَا بِصِغَارِ الْعِلْمِ تُرْشِدُنَا
تَوَاضَعًا مِنْكَ لَا أَمْرًا تُبَيِّتُهُ
بِاللَّهِ بِاللَّهِ مَا عَلِمْتَ مِثْلَكُمْ
وَمَا شَهِدْتُ بِغَيْرِ الْحَقِّ فِي قَسَمِي
عَلَّ الْإِلَهِ بِفَضْلِ اللَّهِ يَجْمَعُنَا
فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ دَارَ الْمُتَّقِينَ وَفِي
صَلَّى إِلَهَ الْوَرَى مَا قَالَ قَائِلُنَا
عَلَى النَّبِيِّ الْمَصْطَفَى وَآلِهِ الْكَرَمَا

حَلَّتْ رَزِيَّتُهُ فِي الْقَلْبِ وَالْكَبِدِ
وَطَالِبُ الْعِلْمِ أَضْحَى ظَاهِرَ النُّكْدِ
تَفْسِيرَ قَرَانِهَا بِوَاضِحِ السَّنَدِ
فِرْعَوْنَ مَذْهَبِهِ كُلُّ بِذَا الصَّدَدِ
رَزِيَّتُهَا فَايْكِيَا مِنْ دُونِهَا أَمَدِ
طَوُّعُ الْفَقِيدِ غَزِيرَ الدَّمْعِ وَالشَّهْدِ
مَنْ ذَا لَنَا بِالنُّصْحِ وَالْمَدَدِ
بِحَرِّ الْعُلُومِ بِهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَنَدِ
بَاقٍ وَمَجْدُكُمْ بَاقٍ مَدَى الْأَبَدِ
وَعَابَ مَنْ يُفْتَدَى بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ
وَحَيْثُ صُرْنَا كِبَارًا كُنْتَ ذَا أَوَدِ
مِمَّا احْتَوَيْتَ عَلَيْهِ جَيِّدَ الْعَهْدِ
مِنْ بَيْنِنَا بَاقِيًا فِي الْقَطْرِ وَالْبَلَدِ
وَلَا عَلَيَّ إِذَا مَا قُلْتُ مُعْتَقَدِي
تَحْتَ الظُّلَالِ عَرْشُهُ الرَّغْدِ
أَقْصَى الْجَنَانِ وَعِنْدَ رُؤْيَا الصَّمَدِ
إِنَّ الْمَدِينَةَ تَنْبَكَّتْ لَفِي كَمَدِ
وَالنَّاسُ مَا بَيْنَ ذِي حُزْنٍ وَذِي جَلَدِ

الفصل الخامس التوسل والمديح

شهر التوسل

التوسل إلى الله برسول الله (صلعم):

أضفى الإسلام على نفوس أبناء السودان الغربي، مبادئ الحب، والوئام، والتخلق بالخلق الحسن، وبعث في نفوسهم حبَّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي بلغ دعوة ربه أحسن تبليغ، والذي مدحه الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيز «بسم الله الرحمن الرحيم وإنك لعلی خلق عظیم» صدق الله العظيم: وقوله «بسم الله الرحمن الرحيم وما آتاكم الرسول فخذوه» وقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين» صدق الله العظيم. وغير ذلك من مواضع التكریم، لرسول البشرية سيدنا محمد بن عبد الله، الذي أخرج البشرية من الظلمات إلى النور، فأخذوا يمدحونه بقصائد يتوسلون به إلى الله تعالى، عندما تضيق بهم الحالة، وما أكثر ذلك خاصة عندما تبخل السماء عليهم بالمطر، فتجذب الأرض وتموت مواشيهم ويهلك حرثهم.

وقد استغل المستعمرون من أمريكيان وفرنسيين هذه الظروف القاسية التي يمر بها أبناء السودان الغربي من المجاعة والفاقة، فأحضروا لهم الحبوب المتعفنة التي كان مقرراً لها أن ترمى في البحر تحت اسم الإغاثة الإنسانية، كان ذلك عام 1974 م.

ولقد شاهدت عشرات من حركات التبشير تجوب منطقة جنوب

الصحراء تحت إسم الإغاثة الانسانية، وهي توزّع جرعات الموت. وعلى كل من يريد أن يحصل على هذه الكيلوجرامات أن يأتي إلى مركز توزيع الاغاثة، فكان سكان الصحراء يغدون إلى تلك المراكز قاطعين مسافات تزيد على الخمسين كيلومتراً بوسائل نقلهم البدائية.

وما يفعله المستعمر اليوم في أفريقيا فعله في الماضي مع أبناء أمة العرب، فقد استغل حالة الفاقة التي كانت تعانيها من جراء الحروب التي خاضتها ضده وقدم لها اليد البيضاء، المطلية بالسواد، من إغاثة وما يعرف بالقرامات عندنا في ليبيا. غير أن الكثير من الأهالي، رغم تدهور أحوالهم الاقتصادية رفض أخذ هذه المعونة المشبوهة والتي هي بمثابة سموم. وهذا أحد أبناء ليبيا يعبر عن رفضه أخذها بقوله:

خمسة كيلو ها الشعير بلاهم خير نبوهم عانه للمدير

وفي ظل هذه الظروف القاسية شرع شعراء الصحراء في نظم القصائد توسلاً إلى الله، الذي لا يمنّ على عباده، إذا أعطاهم، بأن يخرجهم من هذه الفاقة، ولم يتوسلوا إلى المستعمر الذي يحاول أن يوقعهم في حباله. وهذه القصيدة نموذج لهذا التوسل.

والشاعر محمد أحمد بن محمد بن الهادي بن محمد المبارك بن علي، شاعر تنبكتي لم تسعفنا المصادر والمراجع التي بين أيدينا في الحصول على ترجمة، له، غير أننا نستشف من شعره بعضاً من ملامح شخصيته، خصوصاً ما يتعلق منها بثقافته. فشعره دليل على تمكنه من ناصية القول، ومعرفته بأفانين الكلام، ثم إنه يدلنا على روح دينية مرتبطة بالرسول (صلعم) وهو في ذلك يعبر بها أيضاً في التوسل الشائع عند شعراء عصره، أضف إلى ذلك أن الإشارات التاريخية المرتبطة بالصحابة من أمثال العباس وحمزة تقدم برهاناً على ثقافة تاريخية توحى بتبحر في علم السيرة النبوية، كما أن حديثه عن الجفاف واستسقائه المطر دليل على معاشته

لهموم قومه، وهو أيضاً يرد كيد كل ظالم في نحره، فهو بذلك مناضل
بقلمه وسيفه من أجل الحرية فيقول:

ولقهر كل خصومة في ظالم ولرد كل شماتة الأعداء
وشاعرنا يترجم الواقع الذي عليه حال المنطقة في قصيدتين،
الأولى مطلعها:

الله لي في شدتي ورنحائي وشفاعة الحب النبي رجائي
والثانية:

أشكو إليك ولا أشكو إلى الناس فقري وذلي وتقصيري وإفلاسي

ويقول محمد أحمد بن محمد بن الهادي بن محمد المبارك بن
علي بن النجيب:

من البحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

وشفاعَةُ الحبِّ النبي رجائي
وكفى وحسن الظن فيه ردائي
ثم الصحابة كلهم شفعاي
وحمايتي في الضر والسراء
لشفيع خلقك سيد الشفعاء
فَسَرَى فَأَدْرِكُ فَوْقَ كُلِّ سَمَاءٍ
كَلَّا وَلَا مَلِكٍ مِنَ الْكِرْمَاءِ
أَهْلُ الْعُلَا طَرَأَ بِكُلِّ سَمَاءٍ
وَأَرَاهُ لِلْجَبْرُوتِ كُلِّ سَنَاءٍ
مِنْ كُلِّ نَوْرٍ فِيهِ كُلُّ شَفَاءٍ
لِلصَّبْحِ ضَوْءٌ مَا مِنَ الْأَضْوَاءِ
تُهْدِي لِمَنْ هُوَ أَهْلُ كُلِّ سَنَاءٍ
تُودِي الْإِلَهَ بِأَعْظَمِ الْأَسْمَاءِ
نَهَجَ الْهَدَاةِ السَّادَةِ الْأَمْرَاءِ
فَضَالٌ يَا ذَا الْمَنَى وَالْأَعْطَاءِ
يَا مُنْعِمٍ يَا أَرْحَمَ الرَّحْمَاءِ
أَنْتَ السَّمِيعُ لَنَا وَأَنْتَ الرَّائِي
يَدْعُو بِكُلِّ سَمِيٍّ مِنَ الْأَسْمَاءِ
مَتَوَسِّلًا يَدْعُو بِكُلِّ دَعَاءٍ
أَرْجُو رِضَاكَ وَأَرْجُو مِنْكَ فِدَائِي

اللَّهِ لِي فِي شِدَّتِي وَرِخَائِي
اللَّهُ حَشِييَ وَاعْتَصَمْتُ بِحَبْلِهِ
وَالْمُرْسَلُونَ وَآلُ كُلِّ عِدْتِي
يَا مَنْ إِلَيْهِ وَسِيلَتِي وَشَكَايَتِي
وَوَسِيلَتِي الْعِظْمَى إِلَيْكَ مَحَبَّتِي
نَالَ الْكَرَامَةَ وَالْعِلَا مِنْ رَبِّهِ
مَا لَيْسَ أَدْرَكَهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ
فَاسْتَبَشَرْتُ بِقُدُومِهِ فَرَحًا بِهِ
نَاجَاهُ رَبُّ الْعَرْشِ فِي مَلَكُوتِهِ
فَسَقَاهُ كَأْسًا لِلْهَدَايَةِ فَارْتَوَى
أَمْضَى فَرِيضَتِهِ فَعَادَ وَلَمْ يَلُخْ
صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ أَطِيبَ صَلَوةٍ
وَعَلَى جَمِيعِ الْآلِ وَالْأَصْحَابِ مَا
وَالْأَمَهَاتِ وَكُلِّ تَالٍ سَالِكٍ
يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ يَا ذَا الْجُودِ وَالْأُ
يَا مُحْسِنًا عَمَّ الْوَرَى إِحْسَانُهُ
أَنْتَ اللَّطِيفُ بِنَا وَأَنْتَ الْمُتَرَجَّى
أَنْتَ الْمُجِيبُ لِكُلِّ دَاعٍ مُخْلِصُ
أَنْتَ الْمُجِيبُ لِمَنْ دَعَا مَتَوَاضِعًا
أَدْعُوكَ مِمَثْلًا لِأَمْرِكَ فَاسْتَجِبْ

يا رب بَشِّرْ بِالكَرَامَةِ وَالرِّضَا
يا رب بِالْعَبَّاسِ عَمِّ الْمُصْطَفَى
رَبِّ أَشَقَيْنَا غِيثاً سَرِيعاً طَيْباً
سَهْلاً مَرِيعاً نَافِعاً أَمْ صَيِّباً
جَوْناً غَزِيراً بَلْ خَرِيفاً سِقْ لَنَا
يُرْوِي الْبِلَادَ مَشَارِقاً وَمَغَارِباً
يُرْوِي نَبَاتَ الْأَرْضِ بَيْنَ هَضَابِهَا
تَحْيِي بِهِ جُزْزاً بِقَاعاً بَعْدَمَا
وَلْتَنْبِتْ بِهِ جَمِيعَ الزَّرْعِ فِي
زَوْجاً فَزَوْجاً مِنْ نَبَاتٍ طَيِّبٍ
تَرَعَى الْبَهَائِمُ كُلَّ رَوْضٍ رَائِقٍ
فَتَظْلُ طَوَّراً تَجْتَنِيهِ وَتَارَةً
فَإِذَا ارْتَوَتْ تَلَطَّطَتْ وَبَالَتْ بَعْدَمَا
فَتَفِيضُ أَخْلَافٌ بِكُلِّ تَشْخُبٍ
سَبَباً يَكُونُ لَطَاعَةً لَا فِتْنَةً
سَبَباً يَكُونُ لَتُوبَةٍ أَرْجُو بِهَا
سَبَباً يَكُونُ لِدَفْعِ كُلِّ ضَلَالَةٍ
وَلِقَهْرِ كُلِّ خُصُومَةٍ مِنْ ظَالِمٍ
أُوذَاكَ أَمْ حَوْضاً نَقِيّاً أُرْتَجَى
أَعَدَدْتَهُ لِلصَّائِمِينَ نَهَارَهُمْ
يَرْجُونَ قَرَّةَ أَعْيُنٍ مِنْ رَبِّهِمْ

وَيُنْبِلُ فَضْلَ شَفَاعَةِ الشَّفْعَاءِ
رَبِّ بِحَمْزَةِ سَيِّدِ الشَّهْدَاءِ
مِنْ دِيْمَةٍ مِنْ رَحْمَةٍ هَطْلَاءِ
عَذْباً طَهُوراً فِيهِ كُلُّ شَفَاءِ
بِالرَّفْقِ أَنْتَ مُقَدِّرُ الْأَشْيَاءِ
بَيْنَ الصَّبَاحِ وَبَيْنَ كُلِّ مَسَاءِ
يُرْوِي ذَوَاتِ الدُّرِّ وَالْأَبْنَاءِ
قَحَطَتْ وَمَاتَتْ أَيْمًا إِحْيَاءِ
كُلِّ الْمَنَابِتِ مُنْشِئُ الْأَعْضَاءِ
مِثْلَ الدُّبَا وَالنَّخْلِ وَالْقَثَاءِ
ذِي بَهْجَةٍ وَحَدِيقَةٍ غَنَاءِ
تَأْوِي إِلَى خُلُجٍ بِهِ مِنْ مَاءِ
اجْتَرَّتْ بِمَا نَالَتْ مِنَ النِّعْمَاءِ
وَتَوْوَبَ رَائِحَةً قُبَيْلَ مَسَاءِ
تَخْشَى عَوَاقِبَهَا بِكُلِّ مَلَاءِ
مَحْوِ الذُّنُوبِ وَجَلْبِ كُلِّ رِخَاءِ
وَلِدْفَعِ كُلِّ مَضْرَةٍ وَبَلَاءِ
وَلِرُدِّ كُلِّ شَمَاتَةٍ الْأَعْدَاءِ
بِكَمَالِ فَضْلِكَ وَاسِعِ الْإِعْطَاءِ
وَبَلِيلِهِمْ يَبْكَونَ كُلُّ بَكَاءِ
وَشَفَاعَةِ مِنْ سَيِّدِ الشَّفْعَاءِ



وقال الشاعر محمد أحمد بن محمد بن الهادي بن النجيب:

من البحر الوافر:

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

مفاعلتن مفاعلتن فعولن

فِقْرِي وذُلِّي وتقصيري وإفلاسي
فَأَنْتَ مَنْ لِحِرَاحِ المَلْتَجِيءِ آس⁽¹⁾
يا من مقاديرُهُ تجري بقسطاس
واجْعَلْ هُذَاكَ محجتي ونبراسي⁽²⁾
واجعل بذكرك ربي طيب أنفاسي
ينجي من الهلك والبأساء والباس⁽³⁾
من موجب المقت والبلوى والإبلاس⁽⁴⁾
مسوّمات لِعَاثِ قلبه قاس⁽⁵⁾
أَذَلَّ مِنْ رَمَتْ مِنْ مستهلكِ خاس⁽⁶⁾
به المصال على تهويس الأهواس⁽⁷⁾
يا من عنايته حرزي وحُرّاسي
على التكاليف يا من ليس بالناسي
من سر لطفك تغنيني عن أجناسي
وابن على الرشد والإيقان أساسي

أشكو إليك ولا أشكو إلى النَّاسِ
أشكو إليك مع التسليم مبتهلاً
فأَلْطَفَ بنا في مجاري ما تُقدِّره
ولا تَكْلُنَا إلى تدبير أنفسنا
واصحب بلطفك في الحالات يا حمد
وخذ بنا للنَّجاة مسلماً أمماً
أشيع علينا دلاص عصمة ونجا
وارم العدا بسهام البطش هائلة
ورّد من رأفنا بمكره وبغي
وانصر وظفر وأثرنا وكن عضداً
ولا تهنّنا ولا تشمّت بنا أحداً
ومن نواصي الورى مَكْنٌ يدي وأعنْ
وسخّر الكون واضحّبنى بعارفة
وكفّ عنا أكفّ الماكرين بنا

(1) الآسي: الطبيب.

(2) المحجة: الطريق، والنبراس: المصباح.

(3) أمماً: قريباً.

(4) الدّلاص: الدرع سواء كانت حديدية أم المصنوعة من الجلد، والإبلاس: السكوت من خوف.

(5) عاث: ظلوم قاس، من القساوة.

(6) خاسي: طريد.

(7) العضد: الناصر والمصال القتال.

واجعل براجم راحتي مقاليد
وشق قلبي وأملأ، مناسبة
واجعل غذائي أسراراً مقدسة
واجعل عيون معين النفع جارية
وسخر الكون واطو البون يا صمد
واكف الشرور وهيء الأمور ولا
وتخذهم أخذ من عاجلت منتصراً
أغر بهم كل شائك بشوكته
حتى يصيروا لدى أشكالهم عبداً
واجمعهم بحجارة الوبال فلا
يا ربنا واعف عنا يا عفو وجد
ولا تغيّر علينا نعمة سبغت
وصل أركى صلاة بالسلام على
والآل والصحب ما وافى أخو كرم

ما يرتاح من روحه مأسور إبلاس⁽¹⁾
من صفو خالص ما أفرغت في الطاس
تسري ديباً إلى مفارق الراس
على يدي إلى جداول الناس
إحسانه لعوار المعنري كاس⁽²⁾
ثمهل على فرقة الضلال الأرجاس⁽³⁾
ليدينك المرتضى يا خير نقاس
وضابث بأظافير وأضراس⁽⁴⁾
اذ أصبحوا أثراً من بعد إيناس
يشد منهم عن المرمى أخو باس
بالنصر يا ناصراً سلطانه راس
يا من يئن بلا حد ومقياس
مصاص قهر وصفو جذم إلياس
يشكو إليك ولا يشكو إلى الناس

* * *

(1) البراجم: مفاصل الأصابع، إذا قبضت كفك نشرت وارتفعت.

(2) البون: البعد، والعوار: العيب.

(3) الأرجاس: جمع، رجس.

(4) الشائك: ذو الشوكة.

قصيدة للعالم والأديب الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي. وهي
لون «جديد» من ألوان المدح لرسول الله (صلعم)

نبذة عن حياته:

ولد العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي عام 790 م في مدينة
تلمسان بمنطقة مغيلة. نشأ في مدينة تلمسان ذات التاريخ الحضاري
في بيت عريق عرف بالحسب والنسب. وكان من المثقفين القلائل
في بلده، تربى على يد أبي العباس الوعليسي، ودرّس القرآن الكريم
وأمّهات الكتب على يد سيدي أحمد بن عيسى المغيلي التلمساني
المعروف بالجلاب، كما درس العلم على آخرين وقد عُرف بنبوغه
الفكري المفرط.

رحلاته:

بعد تمكّنه من العلم اتجه صوب توات ومنها انتقل إلى مدينة أقدر
حيث بني فيها مسجداً وأخذ يعلم العلم، ومن ثم غادرها إلى كانو ومنها
إلى مدينة جاو عاصمة امبراطورية سنغاي حيث التقى بالحاج أسكيا
محمد، وأجابه على مجموعة من الأسئلة قام بتحقيقها زبادية وحشويك
يجيب فيها على أسئلة أسكيا الحاج محمد. وفي هذه الأثناء سمع بمقتل
ابنه عبد الجبار من طرف اليهود فحزن لذلك أشد الحزن وأراد الرجوع
إلى توات إلا أن نية أداء فريضة الحج كانت قد سبقت ذلك فذهب إلى
الأراضي المقدسة وأدى فريضة الحج.

مناظراته:

حدثت له مناظرة مع الشيخ جلال الدين السيوطي حول قيمة دراسة
علم المنطق وكيف أن السيوطي عنده تحفّظ على هذا العلم فكتب له
المغيلي قصيدة في هذا الخصوص نورد أبياتاً منها للتدليل على ذلك،
يقول فيها:

قصيدة من البحر الطويل:

فعولن مفاعلين فعولن مفاعيلن

فعولن مفاعلين فعولن مفاعيلن

سمعت بأمر ما سمعتُ بمثله وقلّ حديث حكمه حكم أصله
أيمكن أن للمرء في العلم حجة وينهى عن الفرقان في بعض قوله
هل المنطق المعنيّ إلا عبارة عن الحق أو حقيقة حين جهله

فردّ عليه الشيخ جلال الدين السيوطي بقصيدة، نورد منها بيتين
يقول فيها:

من البحر الطويل:

عجبت لنظم ما سمعتُ بمثله أتاني عن خبرٍ أُقرُّ بُئْبُلِه
سلامٌ على هذا الإمام فكّم له لديّ ثناءً واعترافٌ بفضله
ومن هنا ندرك قيمة هذا العالم الذي وقف الشيخ جلال الدين
السيوطي أمامه مذهولاً لتبحّره في العلم.

وفاته:

توفي العلامة محمد بن عبد الكريم المغيلي عام 909هـ بقصر بوعلي
التابع لزاوية كنتة حالياً بعد رجوعه إلى توات.

وألتمس من القارئ العذر على هذه المعلومات المقتضبة عن هذا
الحبر الذي ذاع صيته فهو نار على علم.

وقصيدة المغيلي التي نحن بصدددها هي مدحٌ لرسول الله صلى الله
عليه وسلم وتحتوي على ثلاثة وعشرين بيتاً تترجم إيمان الرجل وتمكّنه
من اللغة العربية وبلاغتها. يقول مطلع القصيد:

من البحر البسيط

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

بشراك يا قلبُ هذا سيّد الأمم وهذه حضرةُ المختار في الحرم
فمن خلال القصيدة نلمس - كما سنرى - أن المغيلي يهرع إلى رسول
الله (صلعم) ويطلب منه الشفاعة عند الله من الذنوب التي اقترفها. وجلّ
العلماء والصالحين رغم أعمالهم الصالحة التي يقدمونها وندرة وقوعهم في
الزلل، إلا أنهم شديداً الخوف من غضب الله ومن عدم دخولهم الجنة.
فنجد في أشعار الصوفية كثيراً من هذا الصنف. فعلى سبيل المثال
يقول الصوفي يخاطب نفسه عند رحيله من دار الفناء إلى دار البقاء:

من البحر الطويل:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

زادي قليلٌ ما أراه مُبَلِّغي أَللّزاد أبكي أم لبُعْدِ المسافة
أُتحرّقني بالنار يا غاية المنا وفيك رجائي فيك كل رجائي

وهذه قصيدة للشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي يقول فيها:

من البحر البسيط:

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

بشراك يا قلبُ هذا سيّد الأمم وهذه حضرةُ المختار في الحرم
وهذه الروضة الغراء ظاهرة وهذه القبة الخضراء كالعلم
ومنبزُ المصطفى الهادي وحجرته وصحبه وبقيع دائر بهم

فَطِطْ وَعِفْ هَموم كنت تحملها
يا سيدى يا رسول الله خُذْ بيدي
يا سيدى يا رسول الله خذ بيدي
يا سيدى يا رسول الله خذ بيدي
يا سيد الرسل يا من ضيفُ ساحته
يا أكرمَ الخلق من حافٍ ومنتعلٍ
يا أشرف الأنبياء يا مَنْ شفاعته
يا صفوة الله يا مَوْلى مكارمه
إِنِّي فقيرٌ إلى عفوٍ ومرحمةٍ
وقد أتيتك أرجو منك مكرمةً
فالحالُ يُغني عن الشكوى إليك وقد
فاشفع لعبدِكَ واجبِزْ كَشْره فلقد
يا أحمدُ يا أبا بكرٍ ويا عمرُ
وقد سعيت إلى أبواب حجرتكم
وأتى من أم القرى يرجو لُفْيَ كرمًا
فإن قبلتُم فإنِّي مُفْلِحٌ بِكُمْ
يا من أجلُّ ملوك الأرض قاطبة
فهل عسى نظرة منكم لزائركم
مُحمدٌ وضجيعاه الذين بهم
يا رب يارب يا مولاي عبدك في

وَسَلْ تَنْلُ كُلَّ ما ترجوه من كرم
فالعبد ضيف وضيف الله لم يُضم
يا من لقاصده أمن من النقم
فبحر جودك مورود لكل ظم
يبيت في الأمن في خير وفي نِعَمٍ
يا أفضل الناس في ذاتٍ وفي شيم
عمت على الخلق في الوجدان والعَدَم
عمت على الخلق من طفل إلى هرم
وأنت أدري بما في القلب من ألم
فأنت أهل الثُّقى والجود والكرم
عَرَفْتَ حالي وإن لم أحْكِهِ بِقَمٍ
أودى به الكسر مما نال من جُرم⁽¹⁾
نزيلكم في أمان غير منهضم
سعيًا على الرأس لا سعيًا على القدم
لسادة همُّ بُحُور الفضل والكرم
في زورة واقترابٍ وإفْرَ القسم
في باب أفضلهم من أصغر الخدم
يُغني بها عن جميع الخلق كُلِّهم
طبنا عن الخسران والسندم
باب الرجا يرتجي أمنًا من النقم

(1) الجرم جمع جرمة ككلمة.

كما نجد شاعراً صحراوياً آخر يسلك نفس المنهج الذي اختطه الشاعر محمد بن النجيب، ألا هو الشيخ سيدي الكنتي، في قصيدة عدد أبياتها أربعة وسبعون بيتاً يطلب فيها من الله أن يخرج من فاقته ويتوسل برسول الله (صلعم).

نبذة عن حياة العالم والأديب سيدي محمد الكنتي:

ولد العالم والأديب الشيخ سيدي محمد الكنتي عام 1765م وهو الابن الخامس للشيخ سيدي المختار الكبير. وقد ظهر نبوغه العلمي وشخصيته القيادية منذ نعومة أظفاره الأمر الذي جعل والده يهتم به اهتماماً خاصاً إلى أن اصطفاه من بين أخوته ليكون خليفته من بعده. وقد تقلد قيادة كنتة بعد وفاة والده عام 1811م وعرف عنه طيلة فترة حكمه الحنكة والدراية والعدل بين رعيته إلا أن فترة قيادته لم تدم طويلاً، قدرت بخمس عشرة سنة، انتقل بعدها إلى جوار ربه عام 1826م ودفن بجوار والده في بو الأنوار وهي مقبرة لرجال كنتة.

وبالرغم من قصر هذه الفترة إلا إنه أسدى أعمالاً جليلة يستحق عليها الشكر والثناء، فقد ترك لنا آثاراً تاريخية وأدبية. فمما ترك من الآثار التاريخية يتمثل في مخطوطة «الطرائف والثلائد من كرامات الشيخين الوالد والوالدة»، وهو مخطوط نفيس يتناول جوانب من حياة عرب جنوب الصحراء.

أما الآثار الأدبية فكان ما تركه منها مجموعة من الأشعار، منها هذه القصيدة التي بين أيدينا، وهي واحدة من عشرات القصائد التي تغنى بها الشيخ محمد.

يقول الشيخ سيدي محمد الكنتي: من البحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

لجأ إليك بِذِلَّةٍ وسؤال
وتوسل بالمصطفى والآل
تمتد في الأزمان والأحوال
واغفر لنا واضفح عن البَطَال
يا كاشف الأهوال والأكحال⁽¹⁾
يا منقذاً لعالي من الأوحال⁽²⁾
لطفاً يدك رواسي الأجبال
غيثاً يُغيث بِصَوْبِهِ الهَطَال
أنعمائنا ومصالحها بالحال
شأن الكريم الرِّفق بالاثقال
والفائز المحبوب منك بنال⁽³⁾

يا رب أوفي حيلة "لمحتال
وتضرّع وتخضّع وتخشّع
أوفي الصلاة عليه منك بلا مدى
يا رب كفر بالمتاب ذنوبنا
يا رب فرّج كلّ داءٍ دائم
يا رب نفّس كُرب كلّ شديدة
يا رب ضاق خناق من عودته
يا رب اسبل من خزائنك الملاء
يا رب نشكو بالمقال وتشتكي
يا رب رفقاً بالعِيَال فإنه
يا رب عان لم ترش لم يتنّش

(1) الأكحال: شدة المحل.

(2) الأوحال: جمع وحل، الطين.

(3) النال: العطاء.

يا رب أرجاء الفضاء مُغْبِرَةٌ
يا رب فانسخها بمزني حُفْل
يا رب جَلَّل عري كل بريَّة
يا رب أَخْلِف كل ظَنِّ ربه
يا رب إن لم تستجب دَعْوَى أخي
يا رب أَخْلِف كل نجمٍ ناجم
يا رب بَرِّد من لَظَى أنفاسِها
يحدو به يا رب منها راعد
يا رب قد قَنِطَ الأنام فأنزلن
يا رب وانشر رحمةً وسَّع بها
يا رب دَارَكْنَا بلطف منعش
يا رب قَدِّس بالزكاة نفوسنا
يا رب طَيِّب بالتقى أنفاسُنَا
يا رب انهكُنَا بعذب باردٍ
يا رب وارفع دون لائحة السنا
يا رب أرشِدْنَا لكل رشيدةٍ
يا رب لا تهتك ستورا صُنَّتْهَا
يا رب لا تصرم من أشطان الولا

جالت بها الأرواح كُلَّ مَجَال
جونٌ تجود بوابلي ذَيَّال⁽¹⁾
وخميلةٌ وشي الكلا يا وال
من حدس خِرَّاص وصاحب فال⁽²⁾
خَوَجاً فمن نرجوه للإنزال
وطحا الجهم بغيمه الجوال⁽³⁾
بالعذب من صَفَو الحَيَا السلسال
ويبوطه أن كع سابط آل⁽⁴⁾
غيثا مغيثاً دائم التَّهْطَال
تُحْيِي مَوَات البيِّد والأطلال
لكبارنا وصغارنا والحال
وانصر على القرناء والأفتال⁽⁵⁾
والذكر والإخلاص والإقبال
من صَفَوِ علم بالمعارف حال⁽⁶⁾
ومشاهد الزُّلفى غطا الأسدال
في الفال والأحوال والأفعال
بعناية الإرفاد والأرفال⁽⁷⁾
والقرب والزلفى إليك حبالِي

(1) الحُفْل: الملىء بالماء.

(2) الخراص: القوال بالظن.

(3) ناجم: طالع، وطحا: أنبط، والجهم: السحاب الذي هراق ماءه.

(4) يحدو به: يوقه، ويبوطه: يخلطه أو يضربه بالسوط، وكع: فتر، أي تباطأ عن المسير.

(5) الاقتال: جمع قتل بالكسر وهو العدد.

(6) انهكنا: بالغ في سقينا.

(7) الأرفاد والأرفال: التعظيم.

يا رب حلّل عقدة....الأزال
يا رب بالذات العزيز جلالها
يا رب لا تجعل عقوبة من أسا
يا رب بالإسم العظيم وما به
يا رب أرسل دَيْمَةً تَنْهَلُ مِنْ
يا رب بالذكر الحكيم بآيه
يا رب طيّب بالهنا جرم الهوا
يا رب بالهادي الأمين المصطفى
يا رب لا تحمل علينا إْضْرَ مَنْ
يا رب بالبیت الحرام وركنيه
يا رب اسعِفْنَا بعين مرادنا
يا رب بالقلم المصُون ولوحه
يا رب سَخِّرْ عالم الدنيا لنا
يا رب بالغوث المقرر رَسْمُهُ
يا رب طيّب جرم لوح أغبر
يا رب بالأقطاب بالأوتاد
يا رب جَلِّبْنَا جلابيبَ الهنا
يا رب بالسبع المَثَانِي والنسا
يا رب كدْ من كاذنا وابطِشْ به
يا رب بالعین المحيطة بالحمى
يا رب حِطْنَا من شَبَا ناب المَخُو

بعوارض تههم بعذب زلال⁽¹⁾
وبما لها من عزة وكمال
في فطح واصل رزفة المتوالي
سمّيت نفسك في عمى الأزال⁽²⁾
تجويف ميم الرحمة الهطال
بحروفه بالنقط بالأشكال
وطارق الأوخام والزلال
والأنبياء وطوائف الأرسال
حَمَلْتَهُ ثِقْلاً من الأثقال
بمطافه ومشاعر الإهمال
واجعله مَرْضِيّاً بلا إخلال
والعرش ذي المجد الرفيع العالي
خَلَوْا من الأوجاع والأوجال
وسطى لنظم قلائد الإبدال
عادت بهيب دائم الإرسال⁽³⁾
بالأخيار بالنجباء بالعمال
والأمن والإيمان والأفضال
والبكر والأنعام والأنفال
وارجمه في جُبِّ الرّدى بخبال
وبحرزك الحتمي من الصّوال
ف وما يسوء وصائل الأفلال⁽⁴⁾

(1) الأزال: الشدة والضيق.

(2) العمى: الطول.

(3) الهيف: ريح تأتي في الصيف من جهة الجنوب وترفع حرارة الأقاليم التي تمر بها.

(4) الشبا: جمع شباة، حد كل شيء.

يا رب بالظاء الرشيق ولامه
يا رب طَوْعٌ لليمين من الورى
يا رب بالنور الذي سَجَدْتُ له
يا رب طَوْعٌ كُلِّ نَفْسٍ صَغْبَةٍ
يا رب بالعزّ الذي خَضَعْتُ له
يا رب سَخَّرَ لي العوالم مثل ما
يا رب بالسُّعدا الذين بِيَمْنِهِمْ
يا رب قَابِلٌ بالإجابة دَعْوَتِي
لبيك يا ربّ الورى فأَجِبْ فما
لبيك مولانا الكريم فَأُولِنَا
لبيك يا حَتَّان يا مَتَّان يا
لبيك دَارِكُنَا برفق منعش
لبيك يا فَتَّاح يا وَهَّاب يا
لبيك أَرْزَاقُ الْعِبَاد أَدْرَهَا
لبيك جِبَارَ السَّمَوَاتِ الْعُلَى
لبيك لَوْ عَاجَلْتُ بِالظُّلَمِ الورى
لكن بِحُلْمِكَ يا حَلِيمِ غَمَرْتَهُمْ
فَبِفَضْلِ حِلْمٍ مِنْكَ عُذٌّ وَأَفْضُ حَيَا
وَاعْفُ وَعَافٍ مِنَ الْبَلَايَا وَالْفَنَاءِ
وَأَنْصِرْ عَلَى دَهْرِ كَسَاهُ عُجُوسَةٌ
بِعَوَارِضِ الدَّيْمِ الْعَوَارِضِ فَائِضٍ
وَأَدِمْ عَلَى فُخْرِ السَّنَا أَشْنَى الثَّنَا

والجيم والقاف العظيم البال
أبرارهم وشرارهم لشمالي
لَمَّا تَهَلَّلَ سَائِرُ الْأَشْكَالِ
بِالْقَهْرِ وَالتَّسْخِيرِ وَالْإِذْلَالِ
سُئِمَ الْمُلُوكُ وَشَامَخُ الْأَجْبَالِ
سَخَّرْتَ بِحَرَكَ لِلْكَلِيمِ النَّالِ⁽¹⁾
فَضْلًا تَلْبِي دَعْوَةَ السُّؤَالِ
فَرْتَبِ أَحْوَالِي وَيَنْعَمْ بِأَلِي
أَرْجُو سَوَاكَ رَبِّ فِي الْأُمَالِ
نِعْمًا وَخَضْبًا سَابِغَ الْأَذْيَالِ
رَحْمَانِ يَا غَفَّارِ يَا مُتَعَالِي
لِلْحَالِ وَالْمَاضِي وَالْآسِتِقْبَالِ
رِزَاقِ بُرِّ الشَّجَى وَالْخَالِي
وَاقْسِمْ لَنَا الْأَوْفَى بِبَلَا مَكْيَالِ
وَالْأَرْضِ قِيَوْمِ الْجَمِيعِ الْوَالِي
عَذْلًا لِعَمَلِهِمُ الرَّدَى بِوَبَالِ
فَبَسَطْتَ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْآجَالِ
يُخَيِّي مَوَاتَ الْوَعْرِ وَالْإِشْمَالِ
صَرَفَ الزَّمَانِ وَفِتْنَةَ الْأَمْهَالِ
نَكَدُ الْغَلَاءِ وَدَائِمُ الْأَمْحَالِ⁽²⁾
الرِّزْقِ الْوَسِيعِ الْوَافِرِ الْمَتْنَالِي
فِي صَحْبِهِ شُهْبِ الدُّجَى وَالْآلِ

(1) النال: الجواد.

(2) النكد: الضيق والكد.

أَزْكَى صَلَاةٍ يَسْتَهْلُ سَحَابُهَا وَأَتَمَّ تَسْلِيمٍ عَلَى مَنْوَالِ
مَا فَرَّجَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ بِجَاهِهِ كُرْبًا تُخَيِّرُ جِيلَةَ الْمُحْتَالِ

* * *

وقال أيضاً، من البحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

يا دائم الإحسان والمعروف	واقيت باب نوالك المألوف
وطرخت أثقال اضطراري بالفنا	وشكوت دهرأ أزماً بصروف ⁽¹⁾
رجمت نوائبه بكل شديدة	فنهارة ليل بجنح شظوف ⁽²⁾
دهرأ أثقل سمومه لحروره	وقضاؤه من زعزع وهيوف ⁽³⁾
لا تخلف الأرواح فيه وعودها	وبوعديها مزن الحيا لم ثوف
بخلت به كف الحياء وأغقمت	رجم العراء يزهرها المقطوف
خابت ظنون الناظرين لموعدي	من نوء نجم كاذب مخلوف
ولنا برعدك يا كريم تعلق	بإجابة المتكفف الملهوف
نحن العيال وإن جنينا غرة	بجميل حليمك رب والمعروف
فاغفر وثب واضفخ عن الجانين	من أهل الجفا والمذهب المأوف ⁽⁴⁾
وأقل عثار العائرين بتوبة	واسثر بسترك عورة المكشوف
وأرخ سواماً شفها جذب الفلا	ومحول مرعاها وطول مصيف ⁽⁵⁾
وأغث بغيث نافع رعد الحيا	جود يصوب بصيب ووكوف
ينهل واكفه عوارضه على	عطش الفلا ومسافح وحقوف ⁽⁶⁾
تحيا البلاد فتكتسي من سندس الأ	زهار وشي مطارف وشفوف ⁽⁷⁾

(1) الأزم: الذي يعرف بشدة القحط والعاض، والصروف. النوائب.

(2) الشظوف: الشدائد.

(3) الزعزع: الريح الشديدة.

(4) المأوف: المصاب بأفة مهما كان نوعها.

(5) السوام: الماشية، وشفها: أهزلها.

(6) المسافح: الأمكنة التي تصب الماء، والحفف: ما أعرج من الرمل، والحفوف: جمعه.

(7) المطارف: جمع مطرف، وهو الرداء، والشفوف من الثياب: الشفاف الرقيق.

يحدو به رَغْدٌ تجلجلُ مُوهناً
تمرى سحائبه الجنوب فتَهَمِي
بِمَزاجِ تسنيمٍ تعلُّ به البرى
لا ينثنى لعظيم ما اجتَرَحَ الورى
هي أمة مرهومة ونبيها
هو قد دعاك لها بأن لاترَدَ بالسـ
فأجبت دعوته وأنت مُجيب مَنْ
فأجبت دُعانا يا كريمُ فإننا
كم نعمة لك لا يُقام بِشُكرها
فأدِم خُمائلَ ما مَنُتَتْ به ولا
يا رب يا ربَّاه يا
فَرِّجْ كروبَ المسلمين فحاجهم
بجلالك الأسنى بذاتك بالسنى

فكأنا هو ضاربٌ بدفوف
تَجَّأُ بما في بحرك المكفوف⁽¹⁾
محمود طالعة المغرب كثيف⁽²⁾
من سوء معتَقِدٍ وشؤم قروف⁽³⁾
الرحمة المهداة للملهوف
سنة الجماد وكان جَدُّ رؤف⁽⁴⁾
يشتَغِفُ أو يشتَكِفُ منجم خوف⁽⁵⁾
ضعفاء تكفلُ بالمنا وخريف
وألَيْتَ وأصلها بلا تطفيف
تَقْطَعُ عوائدَ برك المعروف
مَنْ عَمَّ بالتكليف والتعريف
وَقِفْ عليك وضيعهم وشريف
بجمالِك الأبهى بلا تكييف

* * *

(1) تَجَّأ: أي صبا، وتمرى: تدر، من مرى الناقة يمرىها، إذا مسح ضرعها لتدر.

(2) البرى الأرض والمغرب العاقبة.

(3) القروف: الكثير البغي.

(4) السنة التي لم يصبها مطر.

(5) منجم: الطريق.

وهذه قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم للعلامة محمد محمودالارواني.

من البحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

لاَحَثْ لَنَا وَالْحَمْدُ لِلْجَبَّارِ
مَثْوَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارِ
خَيْرُ الْبِلَادِ وَخَيْرُ كُلِّ دِيَارِ
بَلَدُ الْحَبِيبِ خَيْرُ كُلِّ قَرَارِ
وَمُهَاجِرِي الْأَصْحَابِ وَالْأَنْصَارِ
وَمُنْزِلَ الْوَحْيِ وَالْأَسْرَارِ
وَتَمَتَّعِي فِي رَوْضَةِ الْأَزْهَارِ
وَسَلِّي الْمُرَادَ بِهِ عَلَى التُّكْرَارِ
أَرْجُو رِضَاكَ بِحُرْمَةِ الزُّوَارِ
وَلِصَاحِبِ لَكَ فِي ظِلَامِ الْغَارِ
حَفْصُ مُبِيتِ الدِّينِ فِي الْكُفَّارِ
مُتَوَسِّلًا لَكَ بِالنَّبِيِّ مَزَارِي
مُتَشَفِّعًا بِهِ بَعْدَ الْإِسْتِغْفَارِ
فَأَقْبَلْ مَتَابِي وَارْحَمَنْ أَعْدَارِي
وَالْحَالِ وَالْآتِي عَلَى اسْتِمْرَارِ
وَكَذَاكَ تَوْفِيقِي وَجَبْرُ عِثَارِي
وَقَتِ بِيَوْمٍ أَوْ دُجَى الْأَشْحَارِ⁽¹⁾
فِي قَوْلِكَ ادْعُونِي وَفِي الْآثَارِ

هَذِي مَعَالِمُ طَيْبَةِ الْأَنْوَارِ
هَذِي النَخِيلُ لِطَيْبَةِ وَرَبْوَعِهَا
هَذِي دِيَارُ مُحَمَّدٍ وَبِلَادِهِ
هَذَا الْبَقِيعُ وَذَا الْمُصَلَّى حَبْدَا
بَلَدٌ بِهِ سَكَنَ النَّبِيِّ وَأَلِهِ
بَلَدٌ بِهِ جَبْرِيلُ كَانَ مُرَدِّدًا
يَا نَفْسُ هَذَا وَقْتُ وَصْلِكَ فَارْتَعِي
يَا نَفْسُ هَذَا قَبْرُ أَحْمَدَ سَلِّمِي
يَا خَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ جِئْتُكَ زَائِرًا
فَلَكَ السَّلَامُ مِنَ الْمُتَهَيِّمِينَ دَائِمًا
وَلِصَاحِبِ وَخَلِيفَةِ لَكُمْ أَبِي
يَا رَبِّ إِنِّي لَيْسَ لِي إِلَّا الدُّعَا
وَوَظَلَمْتُ نَفْسِي ثُمَّ جِئْتُكَ تَائِبًا
إِنِّي مُقِرٌّ بِالْعُيُوبِ جَمِيعُهَا
وَإِغْفِرْ ذُنُوبِي كُلَّهَا فِيمَا مَضَى
ثَبِّتْ بِلَوْحِكَ يَا كَرِيمُ سَعَادَتِي
وَأَجِبْ دُعَائِي فِي هَذَا وَبِكُلِّ مَا
أَنْتَ الَّذِي بَشَّرْتَنَا بِإِجَابَةِ

(1) بكل ما وقت ما زائدة.

أنت الذي يَسْرَتْ وَضِلِّي بالمنى
وبك النَّسِيمُ لنا بروضة جَنَّةٍ
يا خَاتَمَ الرُّسُلِ الكرامِ قَصَدْتُكُمْ
أرجو من الله الكريم بجاهكم
وهدى لنفسي لا ضلالةً بَعْدَهُ
والحِفْظُ للعلم النَّفُوعِ جَمِيعُهُ
وَتَقَى يُزِيلُ غُيُوبَ نَفْسِي كُلَّهَا
حتى يرى هَذِي النَّبِيَّ جِئَلْتِي
مع طولِ عُمرٍ في العِبَادَةِ دَائِماً
وغنى أَدومَ على أداءِ حَقُّوقِهِ
ووقايةً في الدين والدنيا وفي
والحفظ من نفسي وإبليسي الهوى
وقضاء كُلِّ مَآرَبِي وَمَقَاصِدِي
ولوَالِدِي جميعهم ومشائخي
وَأَحِبَّتِي والمُسْلِمِينَ جَمِيعُهُمْ
أرجو بِجَاهِكَ للجميع شفاعَةً
وِرْضَا الإلهِ لَكُلِّنَا وسلامةً
بل لا وَجَاهُكَ عند رَبِّكَ فَضْلُهُ
أنتَ الذي مِن نُورِكَ الأنوارُ قَدْ
والأنبياءُ قَدْ أُخْبِرُوا بِكَ كُلُّهُمْ
وَوُلِدَتْ تَذَكَرَ ساجداً مُتَطَهِّراً

من شاسِعِ البُلدانِ والأقْطَارِ
قَدْ فَاحَ فَوْقَ المِسْكِ والأعْطَارِ
مُتَوَسِّلاً بِكَ فِي قَضَا أوطاري
غُفْرَانِ ذَنْبِي أولِ أوطاري⁽¹⁾
وسلامةً من كُلِّ مَا الأخطارِ
والفَهْمِ فِيهِ بِكُلِّ مَا الأَشْطَارِ
وثبوتها بطريقة الأبرارِ
وَشَعَارِي القرآنُ مثلِ دِئَارِي⁽²⁾
وَهِدَايَةِ الجُفَّالِ والفُجَّارِ
مع صَالِحِ الأولادِ والأذْوَارِ
وضعي بقبري خَمْسَةَ الأشْجَارِ
ومن الدَّنَى والدُّلِّ والإغْشَارِ
وحوائجي في ذي وتلك الدَّارِ
وَقَرَابَتِي كُلاً مَعَ الأَصْهَارِ
ولكلِّ مَنْ أَوْصَى وَمَنْ فِي الجَارِ⁽³⁾
وَالْغَفْوِ والغُفْرَانِ من غَفَّارِ
مِنْ كُلِّ خَزْيٍ أو عَذَابِ النارِ
قَدْ جَاءَ فِي القرآنِ بالأشْهَارِ
خُلِقَتْ وَكُلَّ الفُضْلِ والأخْيَارِ
وَتَوَسَّلُوا بِكَ عِنْدَ ذَا القَهَّارِ
حَقّاً مِنَ الأَذْناسِ والأقْذَارِ

(1) أوطاري: مخفف طاري.

(2) الجبل: الطبيعة، الشعار: ما يلي الجسد من الثياب.

(3) الجار: الجوار.

في ليل مَوْلِدِكَ العَظِيمِ تَسَاقَطُ الـ
والنار قد خَمَدَتْ وَغَاضَتْ سَاوَةً
والقَلْبُ وَقتَ صَبَاكَ شُقَّ تَطَهَّرَا
مَلَأُوهُ بِالْعِلْمِ الْحَقِيقِيِّ حِكْمَةً
وَالْفِيءُ مَالٌ إِلَيْكَ بَعْدَ غَمَامَةٍ
فَلَكَ السِّيَادَةُ فِي الْوَرَى أَرْسَالُهَا
وَلَكَ الرِّسَالَةُ فِي الْخَلِيقَةِ كُلِّهَا
أَنْتَ الَّذِي عَرَقَ الْبُرَاقَ لِفَضْلِهِ
وَبَلَغْتَ مَا لَمْ يَبْلُغَنَّ مَلَائِكَ
رَفَعَ الْحِجَابَ حِجَابَكُمْ وَذَنُوتَ مِنْ
أَوْحَى إِلَيْكَ أَوَامِرًا وَنَوَاهِيًا
فَأَتَيْتَ بِالْقُرْآنِ أَعْجَزَ مَا يُرَى
أَهْلُ الْبَلَاغَةِ وَالْفَصَاحَةِ كُلُّهُمْ
بَلْ أَعْجَزَ الثَّقَلَيْنِ عَنْ أَنْ يَأْتِيَا
فَائِقَادَ مَنْ شَاءَ إِلَهُ صَلَاحُهُ
ثُمَّ الْعِدَا أَعْدَاكَ عَادُوا كُلُّهُمْ
قَدْ مَدَّكَ الْمَوْلَى بِجُنْدِ مَلَائِكَ
فَانْقَلَبَ جَمْعُهُمْ بِدِينِ حَقِيقَةٍ

أَضْنَامُ وَالْكُفَّانُ بِالْإِذْبَارِ
وَأَنْشَقَّ إِيوَانُ لِذِي الْأَشْرَارِ
مِنْ حَظِّ شَيْطَانٍ وَذِي الْأَغْيَارِ
فَبَدَا هُنَاكَ الْأَمْرُ بِاسْتِقْرَارِ
قَدْ ظَلَّلَتْكَ بِرُؤْيَا الْأَبْصَارِ⁽¹⁾
أَمْلَاكُهَا وَالْأَنْبِيَا الْأَصْدَارِ
مِنْ مَالِكَ الْإِيرَادِ وَالْإِصْدَارِ
فِي لَيْلَةِ الْإِشْرَا لِرَبِّ سَارِ⁽²⁾
وَعَلِمْتَ مَا لَمْ يَعْلَمَنَّ الْقَارِي⁽³⁾
قُرُوبٌ بَلَا كَيْفٍ وَلَا إِحْصَارِ
وَعِبَادَةٌ جَاءَتْ عَلَى الْمِقْدَارِ
بِشَّرِيعَةٍ طَهَّرَتْ مِنَ الْأَكْدَارِ
عَجِزُوا ذَوِي نَثْرِ وَذِي أَشْعَارِ
مِنْ مِثْلِهِ فِي أَيْمَانِ الْأَغْصَارِ
بَاءَ الْكُفُورِ بِعَجْزِهِ وَوَبَارِ⁽⁴⁾
بِدُعَاكَ صَرَعَى فِي قَلِيبِ نَارِي⁽⁵⁾
قَطَعُوا أَصُولَ الْكُفْرِ بِاشْتِصْغَارِ
تَعِشُوا لَعَا لَهُمْ بِكُلِّ الْعَارِ⁽⁶⁾

(1) الفِئء: الظِّل.

(2) القاري: مخفف القاريء.

(3) قوله لرب يتعلق بسار، الذي هو حال، ووقف عليه بالسكون ضرورة أو على لغة ربيعة.

(4) وبار: رجع عن غيه.

(5) في قليب ناري أشار إلى موقعه بدر التي كانت أول لقاء بين الإسلام والكفر.

(6) انقل: انهزم وتراجع.

فَسَقَيْتَهُمْ سُمَّ الْحُسَامِ بِهَذِهِ
وَاللَّهُ أَظْهَرَ دِينَهُ بظهوركم
فهناك قد مات الحسودُ بغيظه
أما الذين هَدَاهُمُ الْهَادِي إِلَى
وَاللَّهُ مَنْ عَلَيْهِمْ إِذْ أَخْرَجُوا
فَأَجَابَ كُلَّهُمْ دُعَاكَ بِبَذْلِهِمْ
قَدْ جَاهَدُوا وَاللَّهُ دُونَ غَنِيمَةٍ
وَلَكِ انْشِقَاقُ الْيَدْرِ جَاءَ مُثَبِّتاً
كَمْ مِنْ عَلِيلٍ قَدْ شَفَاةُ شِفَاكُمْ
وَكَذَاكَ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ بَغَارِكُمْ
أَنْتَ الَّذِي نَبَعَ النَّمِيرَ بِكَفِّهِ
وَالشَّاةُ دَرَّتْ وَالْحَجَارَةُ سَلَّمَتْ
وَالذُّئْبُ أَعْجَبَ مِنْ فَصَاحَةِ قَوْلِهِ
وَأَنْهَلَ قَطْرَ السُّحْبِ عِنْدَ دُعَاكُمْ
حَتَّى أَتَاكَ مَرِيدُهَا إِذْ مَلَّهَا
وَكَذَا الذَّرَاغُ بِسُمِّهِ أَبْدَى لَكُمْ
وَالْبِئْرُ فِيهِ مُلُوحَةٌ وَبِتَفْلَةٍ
وَكَذَا الْغَزَالَةُ سَلَّمَتْ وَبِكَفُّكُمْ
وَجَرِيدَةُ صَارَتْ أَشَدَّ مَهْنِدٍ
وَالْعَيْنُ نَائِمَةٌ وَقَلْبُكَ نَاطِرٌ

وبتلك شقياتهم بعاني القار⁽¹⁾
حقاً عليهم أيما إظهار
ولبئس مأوى الغادر الختار⁽²⁾
نور الهدى قد آمنوا بوقار
غيب الغيب الخسران والأوقار⁽³⁾
للنفس والأموال يشتتفار
لحياتهم في الموت دون ضرار
في المشنيدات صحيحة الأخبار
ويلمس راحتكم بفضل الباري⁽⁴⁾
وعجائب في الغار للأفكار
قد فاق ماء البحر والآبار⁽⁵⁾
والجدع حن كمشية الأشجار
والضرب أعرب عنك بالإقرار
في سبعة بالويل والميزار
فدعوت فأنجابت إلى الأغوار
وشكا البعير إليك بالإكثار
قد صار خلوى دونما إشكار
صم الحصى سبحن بالإذكار
من لمس كفك دونما إنكار
والعقل لا يشهو عن التذكار

(1) القار: القطران، والأنبي: البالغ النهاية في شدة الحرارة.

(2) الختار: الغادر.

(3) الغيب: الظلمة، والأوقار: الأحمال، جمع وقر.

(4) الباري: مخفف.

(5) النمير: الماء العذب.

أَشْبَعْتَ أَفْوَاجاً بُمْدٌ وَاحِدٍ
لَا ظِلٌّ لَا أَثَرَ لِمَشِيكِ سَيِّدِي
كَمْ آيَةٌ لَكَ لَا تُحَدُّ لِوَاصِفٍ
فَلَكَ انْتَهَى فِي الْفَضْلِ كُلُّ فَضِيلَةٍ
وَسَقَيْتَهُمْ بِأَنَامِلِ الْأَمْطَارِ
وَالطُّولُ يَقْصُرُ مَعَكَ فِي التَّشْيَارِ
آيَاتُكُمْ جَلَّتْ عَنِ الْأَشْفَارِ
وَلَكَ انْتَهَى فِي الْفَخْرِ كُلُّ فَخَارٍ

* * *

من ألوان الشعر الصحراوي

الوعظ والإرشاد:

شاعر الصحراء هو لسان حال أهله، تارة يهجو أعداء بني جلدته وتارة أخرى يمدحهم، وثالثة يعظهم ويرشدهم، فإذا لمس منهم ممارسات خاطئة فهو المراقب لهم في تحركاتهم وسكناتهم. فهذه القصيدة التي أعرضها للعلامة الصوفي الشيخ المختار بن أحمد الكنتي أحس من خلالها أنه لمس تكالبا على الدنيا ولذاتها الفانية فأخذ يذكر بأن كل نفس ذائقة كأس الموت مثلما قال الشاعر.

الموت كأس كل الناس ذائقه والقبر دار كل الناس ساكنه
وكأنه يستأنس بقول الله تعالى: «بسم الله الرحمن الرحيم كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» صدق الله العظيم.
فشاعرنا عالم صوفي وشاعر، وبذلك توافرت له الأساليب كافة، يطلب من أبناء جلدته أن يتزودوا بالتقوى والعمل الصالح.

بيتان للشاعر الصوفي الشيخ المختار بن أحمد الكنتي رحمه الله:
باب المهيمن كل الناس داخله واستشعر النفس أن الموت تأتيها
وارحل بزداد من التقوى تقدمه واستصحب العزم إنه مواتيها

كتب الشيخ باي بن عمر هذه الوصايا الصالحة المفيدة إلى أمير
من الأمراء قائلاً له:

«أوصيك بتقوى الله ونفع المسلمين وعدم السعي في مضرة أحد، فإن
نفعتهم حالت عليهم الرحمة، والساعي في مضرة أحد منهم متعرض للنقمة
واللعنة، ولا تغفل عن ذكر الله في جميع أحوالك، واجعل أمره أمامك،
ولا تغفل عن ذلك فيؤويك الله من رحمته أعاذك الله من ذلك ولا توسع
بطنك لأموال الناس فإن بطناً امتلاً منها حقيق أن يمتلىء من النار ويحل
صاحبه البوار وما رخصت لك فيه أو رخص لك أحد فيه كائناً من كان
فاستفت فيه نفسك واقتصر منه على الأوسط واحذر من ضلال المسلمين
ففي الحديث الصحيح: «ضالة المؤمن من حرق النار».

* * *

وقال أيضاً:

أوصيك بتقوى الله ولا تكن من الغافلين فاحفظ الصلوات والأوقات
والأذكار والدعوات، وصلي الرحم، واصبر على الرعية، ولا تأكل حقوقها،
وتذكر الموت وحسرة الفوت والمصير إلى التراب وفجأة الموت وظلمة
القبر وبلاء الجسد ومصيره للدود والقيح والصدید. واشتغل بما ينفع في
ذلك عن لذات هذه الدار الفانية فلا تشغلك هذه الشواغل التي هي سراب
عن ذكر الله والعمل لوجهه وأداء الصلاة بطهارتها في وقتها، ولا تطل
الأمل وتترك العمل فإن الأمر جد ولعل الأجل حضر وأنت عنه غافل.
فعليك بتقوى الله والسعي في مصالح المسلمين قولاً وفعلاً فذلك هو
أفضل عبادتك وسبب نجاتك. قال صلى الله عليه وسلم: السلطان ظل
الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده فإذا عدل كان له الأجر
وعلى الرعية الشكر وإذا جار كان عليه الاصر وعلى الرعية الصبر إذا

جارت الولاة قحطت السماء وإذا ضاغت الزكاة هلكت المواشي، وإذا
ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة. قال صلى الله عليه وسلم: «من ولي من
أمر أمتي شيئاً فحسنت سريره رُزقَ الهيبة».

الفصل السادس

الشعر في مطح وضم الشاخي!!

مطبخ الشاي وظمه

لون جديد تغنى به شاعر السودان الغربي ألا
وهو ما يُعرف بالأشاي خمر الصحراء:

الرجل في جنوب الصحراء لا يهتمه في يومه إلا شيئان: شربُ الشاي
الأخضر في الصباح مع صحن من اللحم المشوي. وقد سألت العديد من
أهالي تنبكت عن عادة تناولهم للشاي واللحم المشوي يومياً فأجابوني:
وكيف لنا أن نقاوم عنت الصحراء؟

والرجل الصحراوي عُرفَ بالكرم المُفرط، فأول ما يقدمه لضيفه كوب
الشاي الأخضر، وهو يعد عندهم رمزاً من الرموز التي لها وقع في أنفسهم.
فرجل الصحراء يستطيع أن يبقى بدون أكل لفترة من الزمن ولكن لا يستطيع
أن يبقى بدون شرب الشاي، وبذلك نجدهم دائماً يبحثون عن بديل للشاي
بحرق الحلبة بدلاً من الحشيشة⁽¹⁾ أو بحرق نبات الزعتر إلخ...

وهذا شاعرنا عيسى بن محمد يطري الشاي بقصيدة تحرك بها وجدانه
تتكون من خمسة عشر بيتاً:

مطلعها:

إن الأشاي لمذبة للعار عن كل ذي قدر من الأخيار

(1) الحشيشة: هي المادة التي يصنع منها الشاي.

ويقول شاعر آخر يمدح الشاي وهو الشاعر بن الصادق في قصيدة
تتألف من ثمانية عشر بيتاً:

ألا لهف نفسي من مبיתי ليلة على القرّ والمفتول ناءٍ وشاسعُ

ويقول الشاعران سليمان الحوات والخليفة بن المصطفى أبياتاً في نفس
المضمار. فأدباء الصحراء منهم من يمدح الشاي وما أكثرهم، وهناك من
يذمّ شاربهِ ويعتبر شاربهِ فعل بدعة شنيعة. من بين هؤلاء الشعراء الفقيه
محمد إفالت نظم قصيدة تتكون من تسعة أبيات مطلعها:

اتاء شاربهِ يلهو كسكرانا ولا يزال من الضلال حيرانا

ورد عليه الشاعر عيسى بن محمد بقوله:

أتاي من نَعَم الرحمان مولانا لا ينبغي كفرها سراً وإعلانا

وما احتفل شاعر الصحراء بالشاي، إلا لقيمته ذلك أنه يشكل غذاء
تفوق فائدته التغذية لتحقيق نشوة خاصة، يتذوق معها الصحراوي كل
معاني الأصالة والارتباط بعادات وتقاليد وتاريخ بلاده.

ويقول عيسى بن محمد:

من بحر الكامل:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

إن الأتال مذبةٌ للعار عن كلّ ذي قدرٍ من الأخيار

هو عُدة للضيف حقاً سيما
فعلبك بالمفتول لا تركن إلى
لا تغترر بسواه من كمركب
والزَم من المفتول أجوده وكن
وتجنب النعناع فهو مكدر
ولتلتزم تكميل آلة شربه
وكؤوسه والزيف والمغراج مع
واخذر من الإبريق فهو مُكدر
والزم إدامة شربه وقت الضحى
بجماعة فضلاء يُحسن حالها
وأقمه حتماً للأفاضل حيثما
يا رب فارزقنا خللاً وأهدنا
ثم الصلاة مع السلام على الذي
والآل والأصحاب خير أولي النهى

من كان ذا علم وذا مقدار
ما دونه فحذار منه حذار⁽¹⁾
فتعده للشرب أو للعار⁽²⁾
للماء محترساً من الأكذار
طعم الأتاي الأجود المختار
كالطبل والبراد والمجمار⁽³⁾
تنظيفها كلاً من الأقدار⁽⁴⁾
إلا إذا كُنْتَ في الأسفار
وعشية تسلم من الإقتار
وحديثها صافٍ من الإضجار
وأفوك تسلك مسلك الأحرار
واغفر لنا ما كان من أوزار
قد جاء بالبُشرى وبالإنذار
والتابعين أولي العلى الأبرار

* * *

(1) المفتول: من أجود أنواع الشاي.

(2) المركب نوع من أنواع الشاي والعار كلمة حسانية معناها الضيوف.

(3) الطبل والبراد والمجمار أدوات الشاي.

(4) الزيف المنشفة والمغراج أداة من أدوات الشاي.

ويقول حتاح بن الصادق:

من بحر الطويل:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

ألا لهف نفسي من مبيتي ليلة
مبيتٌ يُضاهي ليل صبٍّ تدعُّه
إذا المرء لم يعد شذاهُ فإنه
وبينا أُمْنِي النفس وافيت فتيةً
وكاساتهم صف على الطبل واحدٌ
كما يلمع البدرُ التمامَ وحوله
رموا فيه كيل الكأس ممّا تضمّنت
وجرد ذو درعين بيضا نقية
وتبسّم في ذاك الكؤوس كأنها
فلما رشفتُ الكأس منها تفتقت
فقالوا: أعنا بالدليل، فإننا..
فقلت لهم يكفي لنا كل مُسكرٍ
أليس بيت الله يشربُ دائماً
له من هوى الطاغوت بدونها

على القرّ والمفتولُ ناءٍ وشاسعٌ⁽¹⁾
وساوسٌ تجري من لظاها المدامعُ⁽²⁾
تناهت لديه بالهموم الدوافعُ⁽³⁾
ومغراجهُم وقت الغدية طالعُ
وبرادهم بين الأحبة لامعُ
نجوم الدراري حين تصحو المطالعُ
بواهر بحر سبقه الشاه شائعُ⁽⁴⁾
وخضراء ذاك الوصف للفضل جامعُ⁽⁵⁾
ثُغور العذارى حين تُنضي البراقعُ⁽⁶⁾
ينابعُ شعير من طويل هوامعُ⁽⁷⁾
تظللنا منها الشيوف القواطعُ
حرام فمفهومٌ له لك شافعُ
كما قاله الحجاج والله مانعُ
يُصلى به إلا علته الرّوادعُ

(1) القرّ الضمر: شاسع بعيد.

(2) الصبا: العاشق، وتدعه: تدفعه دفعاً عنيفاً.

(3) شذاه: رائحته.

(4) كيل: الكأس: ملؤه.

(5) ذو درعين: معناه حجر السكر في لفافتين من ورق أخضر.

(6) البراقع: جمع برقع ما تضعه المرأة على الرأس.

(7) هوامع: سوائل.

سوى الباطن الذي له ليس وحده كفيلاً ولا منه الأتى والمجامعُ
ولا غرو أن الماء يسمع صوته قليلاً وفي ملء السقا هو هاجعُ
كذلك إنكار المسائل صادرُ من الجهل، والجهالُ قدماً تنازعُ

* * *

ويقول الشاعر سليمان الحوات:

من البحر الطويل:

مفعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فعلولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن
وهيموا بشربكم أتاي فيائه حلال وليس في الحلال ملامُ
وكونوا عليه مدمنين فيائه شفاء النفوس إن عراها سقامُ
يثير نشاطاً يبسط الكف بالندى فمن ثم كل شاربيه كرامُ
إلى غير هذا من منافع جربت وقا بها في السالفين إمام

* * *

ويقول آخر:

من البحر الطويل:

فعلولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فعلولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن
شربنا كؤوساً يعلم الله أنها تهيج للعشاق ما في الضمائر
منعنة حمراء كالخمر طعمها ولا عيب فيها غير جبر الخواطر

* * *

ويقول الخليفة بن مصطفى:

من البحر الطويل:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

إذا لم نجد إلا النملة مشرباً شربنا ولم نعبأ مقالة ذي عذل⁽¹⁾
فإن وُجد المفتول قلنا لنملة مقالتها للنمل في سورة النمل

* * *

ويقول آخر:

من البحر البسيط:

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

الضيفُ دون الأتاي اليوم مُكرمه لم يجد شيئاً وإن جلّت فوائده
ومن سقى ضيفه الأتاي أكرمه ولا يُعاب وإن قلّت موائده
بذا جرث عادة الأيام وانحسبت والدهر لا بد أن ترعى عوائده

* * *

الفقيه محمد أفالت حرم التاي وجعل شربه بدعةً شنيعةً، ونظم في ذلك قصائد منها قوله:

من بحر البسيط

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

أتاء شاربهُ يلهو كسكرانا ولا يزالُ من الضُّلال حيرانا

(1) النملة: نوع من ورق الشاي/ قوي المذاق.

أتاءٍ لم يك من أفعال سيدنا
ولا علي ولا الأصحاب كلهم
ولا إمام بحمد الله مسجده
أتاء بدعة أقوام سيورثهم
وإن أتاهم خليل ناصح لهم
إذا أتوا رجلاً سمحاً خلأفه
يذم بعضهم بعضاً إذا نفدت
وهم يمتنون والإقتار شيمتهم

وتالييه ولا من فعل عثماننا
والتابعين لهم عدلاً وإحساناً
ولا من الغر من أبناء موسانا⁽¹⁾
من بعد مشربهم فقراً وخذلانا
عضوا أناملهم ظلماً وعدواناً
ولم يروا مغرجاً جفوه مجانا
أوراقهم يحسبون الغد حرمنا
على الكرام إذا يغطونهم كانا⁽²⁾

ورد عليه عيسى بن محمد بقوله:

من البحر البسيط:

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

مستفعِلن فاعِلن مستفعِلن فاعِلن

أتاي من نعم الرحمان مولانا
أتاي من أطيب الأرزاق جوّزه
فالأصل في كل شيء الإباحة ما
أتاي حلّ حلال زينة وردت
قد أجمع المسلمون اليوم قاطبة
وليس من بعد دين ريبة وكفى

لا ينبغي كفرها سرّاً وإعلاناً
دين قويم عن المختار وافانا
لم يظهر المنع تحقيقاً وإتقاناً
في مثله آية نصاً وتبياناً
على إباحته بيضاً وسودانا
بالنص نهجاً وبالإجماع برهاناً

(1) حمد الله تقع في مملكة ماسنة، وهي عاصمتها أيام الشيخ أحمد بري وأولاده، وموسانا جد لعل بن النجيب.

(2) كان وإنكان: نوع من الكؤوس صغيرة الحجم يستخدمها أهل الصحراء في شرب الشاي وهي مثل كؤوس الشاي الليبي.

لا يمتري اليوم في استحسانه أحدٌ
 به قضى العرف وهو من قواعدنا
 فالضيف ببهجة الخل يطربه
 فلا يفرط فيه غير ذي عته
 ألا فمن يجتنبه اليوم قد نزعا
 من كان ذا همة فليلتزم أبداً
 فهو الضيافة والإحسان أكمله
 ومن سقى ضيفه كأساً على عجل
 ومن يداوم على تعجيله كرمأ
 يا صاحب الحزم لا تترك تعاطيه

إلا ذرو البخل أو من كان حيرانا
 أصلاً إذا وافق المنهاج ميزانا⁽¹⁾
 والعرض يحصنه بالحزم إحصانا
 غمر جهول عن الخيرات قد بانا⁽²⁾
 ثوب المروءة والإحسان حرمانا
 تطليع مغرجة للناس إدمانا⁽³⁾
 من لم يُقدِّمه للأضياف قد هانا
 فقد أصاب ولو في كأس إنكانا⁽⁴⁾
 للزائرين فلا يَغْد خوانا
 فإنه يَقلِبُ الأعداءَ إخوانا

* * *

(1) من قواعدنا، أي معشر المالكية.

(2) ذي عته: ذي حمق، والغمر: من لم يجرب الأمور.

(3) تطليع مغرجة: إغلاءه.

(4) انكان وكان كأس صغير.

الفصل السابع أطب الرسائل

نماذج من كتابة الرسائل والردّ عليها
عند أطباء الصحراء

رسالة من الحاج أبي القاسم

ابن الحاج محمد بن أحمد البليلى

إلى سيدي بو عمامة بن سيدي محمد بن الحبيب

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وسلم،

محبتنا في الله وأعز الناس عندنا السيد الفاضل، سيد أقرانه المكرم سيدي أبو عمامة بن سيد بن الحبيب. الكتاب إليك من عند محبك على الدوام الحاج أبي القاسم بن الحاج محمد بن أحمد البليلى. ألف سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وعلى جملة من معك وإليك وإن سألت عن ماذا ضاع لك على يد أبناء أحمد بن محمد البوثقي لليوم ما جبروا شيئاً لأجل اليهود فلهم ولا صار عندهم شيء ولا أحد فيض شيئاً لا البشير ولا غيره وأمر الشريعة ما خاطبناه خائف عن مضيع حقهم، وهذا كثير الناس ييغون منه كما في شريف علمك، والحاج محمد بن ففة تلاقينا معه يوماً وراح وهو قاعد في جعبوب عند المرابط واليوم إن كتبتم أنتم ووالدك لأخوان البشير لعله يسلك، وأما أخوهم ما نظن يصير منه شيء هذا إذا كنتم يعني يخسرون من عند أنفسهم ونعلمك في الخلطة التي بيني وبينك ترى العقد أرسلناه لأخينا الحاج محمد إذا أوجدت الذهب ذاك المراد

لأجل عليه صار الكلام.

وأن ما تيسر يكون الريش حتى نسلك، ووصيتنا على المدفعة ستة عشر
وجها وغدار ستة وجوه وعمائرهم اشتريناه أنهم عندنا في غدامس.
خائف أن أرسلهم لأجل ما، ثم من يحتفظ عليهم ويتوكل كما ينبغي،
والثاني على نظرك في قيمتهم وتسمع يأتي عليهم بحسابكم قوب ذهب
والامانة محبوب كانت تحبهم أعلمني أرسلهم على يد عب وعلمناكم
على قيمتهم والبضاعة التي عندك لي والتي هي الذهب أولى لنا لأجل عليه
صار الكلام وإلا ما تيسر تدفع لأخينا الحاج محمد على ذمتك يباع في
الطرابلس، وبقولي أنك ما بقيت اليوم تاريخ أواسط ذي الحجة 1201هـ.

**رسالة من الأميركاوي بن السلطان أم علي
إلى الشيخ سيدي المختار بن سيدي
أحمد بن سيدي أبي بكر الكنتي.**

الحمد لله الذي لا يَخْذِلُ من تولى: ولا ينصر عبد منه تخلى، والصلاة والسلام على نبيّه المصطفى وعلى آله الشرفاء وأصحابه أولي العدل والوفاء وبعد، فيسلم السلطان كاوي بن السلطان أم علي وسيلته لولي أمره ومالك نفعه وضره الشيخ سيد المختار بن سيد أحمد بن سيد أبي بكر الكنتي قائلاً: سبب أشخاص البراءة «الرسالة» إلى ساحتك الفسيحة ومنارتك الرفيعة المستضيئة إعلامك أن قد بلغنا قولك البليغ وكتابك البديع، أكد لنا استقامة رأيك وعقلك ووجور علمك وفضلك، فقابلناه بما هو أهله من الترحيب والتقبيل وحسن الطاعة والتبجيل، فاستقرأناه بحسن الاستماع حتى أخذ منا بمجامع الطباع، وخضعت له الأعناق لما فيه من عجائب الأعلام ففهمنا ما فيه من التنبيه لا التمويه وقلنا متبرئين مما عسى أن يظن بنا من الموجرة على الوقية المعهودة التي لا نعدّها إلا من الأمور المحمودّة، فإن الرأي ما رأيت والأساس ما بنيت.

إذا قالت حزام فصّدّقوها فإن القول ما قالت حزام

واعلم يا شيخنا ووسيلتنا إلى ربنا أن قلوبنا من التعلق بما لا ترضاه
سليمة. فمعاذ الله أن تنسب إلى الأولياء من أحد منا جريمة. فلا والله ما
حملنا فعلتك إلا على السداد وأنها من نتائج التوفيق والإمداد، فمن أين
الدير وأعزتكَ داعية اليقين بفل سيف من خلعوا ربقة الديانة عن أعناقهم
وحسبوا فلا بد المكر والبغي أحسن أطوافهم، بل أبطلنا أراجيف المشاة
وهو نابر خاريف الوشاة ولقد ارتكب أبناء حماد صعباً حيث سلوا من
تلقائك غضباً وظلموا لك من شدة الحقد ركباً فقد توقعوا إن لم يقلعوا
من ولي المتقين حرباً لجهلهم بقدرهم وجوازهم لطورهم وأما علي بن
محمد بن رحال فليس ممن يباريك في المجال بل أمره عندنا سهل
وسيسلك فيه قول فصل وهو أنه لنا بمنزلة المملوك الراعي وأنت بمكانة
الوالد الشفيق المراعي. ولكل منكما ما يناسب مقامه من حب، فشئان ما
بين المقامين، وهيهات ما بين المحبين، ألا ترى أنه خفضت لأخمصك
نفسى، أفأرفع عليك أحداً من أبناء جنسى فلقد قال رأي تشوّفت إلى ذلك
ونقصت همتي أن استشرفت إلى ما هنالك، بل الحق الذي لم يشب
بشائبة الشك والريب والله ولي الشهادة والغيب أنه راضٍ أن أشتري نزرًا
من رضاك بحذافير الدنيا فكيف بأدائها، فهوّن عليك أمر هذا اللئيم ولو
جفا، فإن الكريم إذا قدر عفا كيف يعز من اتخذ الدنيا سناداً والشيطان
ركناً وعماداً والمكوس طرفاً وتلاداً، أم كيف يهون من المعرفة إحساس
بنياته، والموافقات قيد عيانه، والمخالفات معدن عدوانه، ومن كان مولاه،
العزير أعزه فلا يقدر أحد أن يهينه، هذا وقصارى أمره معنا أنا لما انتبذنا
في أماكن كثيراً من أموالنا وشف جلبه غالباً على عمالنا رأينا أن نوليها
ونستر عيوبها من يقوم بأمرها، فوجدناه بذلك زعيماً ماهراً في سياسته،
صابراً نفسه على رعايته من غير أن نطمعه بذلك في شف غبارك ولا أن
نسمن ورمه بيدارك بل إنما هو في الخسة هو وأنت في الرفعة أنت وكيف
يقاس العزير بالرفيع؟ أم كيف يبارى الظليع بالضليع؟ فها نحن سيوفك

القاطعة ورمحك القامعة، فأصِبت بنا مقاتلَ مَنْ أردت ووالِ بنا أولياء ربك،
وعادِ بنا أعداء وليك. فالله ناصرُك وخاذلهم وأما لآدم والسكاكنة الذين
أرسلت إلي في شأنهم، فقد تركتهم لك رمضاً، ونقضت يدي من غبار
صعيدهم نفضاً، فوالله لو سألتني ما بيدي من الدولة لنزلت لك عنها،
ونخلت أمرها. فمالي لا أرضى بذلك، وفوق ما هنالك. وأنا أرجو من الله
أن يجعلك لي حرزاً مكيناً وحصناً حصيناً ويدفع عني بك وبذريتك عاجلاً
وآجلاً كل همٍّ وغمٍّ وشماتة عدو، وحسد حاسد، ومكر مكر. أبقاك الله
لنا وأبقانا لك، ولا رمي بيننا وبينك بسهم الفراق إلا بالمواطن والمباني لا
بالأرواح والمعاني.

هذا وإني سائلُك أمراً فلا عليك أن تتكرم به علينا وهو الرجوع إلى
بلادك، والمباعدة محل بعادك، وأن تكون بمحلٍّ لا يُخفى علينا فيه أمرُك،
كما كان قبل، وتعتزل الأرض المعرضة لثوران الفتن، فلقد جرّبناها ورأينا
سكانها وأولي ولايتها من تدمكت وغيرهم يترامحون ترامح الحمر
ويتأكلون فيما بينهم تأكل دواب البحر في اللج، وكفى في هذا المقام
الإشارة دون طول العبارة.

والسلام.

رد على الرسالة من سيدي المختار بن سيدي أحمد ابن سيدي بن بكر الكنتي

يقول الشيخ: الحمد لله الذي لا راّد لقضائه ولا غنى عن فضله وعطائه والصلاة والسلام على من أكرمه الله بحقائق آلائه وعلى آله وصحبه وعترته وأزواجه وأبنائه، هذا وانه من عبد ربه المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي إلى عيبة نصحه وكرشه ومحل محبته وأنسه سلالة الأخيار والأبرار ومعدن الجود والفخار، ومحك رحال القاصدين من جميع الديار والأمصار من أينعت شماريخ مجدهم فَعَلَتْ وَشَمَخَتْ معالم قدرهم فَجَلَّتْ، جماعة الأبناء والأحبة النصحاء ومن انضاف إليهم مَن ولاه الله جلُّ الأمور وعدّها من أبناء كردن أدام الله عزهم ورفع مجدهم أخصّ من الجميع القاضي الهمام الناصح لجميع الأنام الصالح بن محمد البشير والأمير كاوي ألف سلام عليكما ورحمة الله وبركاته، أما بعد فموجبه إليكم أني بليت في هذه الأيام برعاع لئام لا يفقهون خطاباً ولا يردون جواباً أعماهم الجهل والحسد وأضلّهم الهوى واللدّ لا يَفُون بوعده، ولا يثبتون على عقد. قد تحزبوا تحزب الخوارج على السلف. وتألّبوا تألب النصارى على الحق فأطفأ الله جمرتهم بالرعب، وصولتهم بالغلب والسلب

فحميتُ السالم وتجافيتُ عن الظالم وما فعلتُ ذلك غضباً لنفسي ولا عداوة لهم بل سبب ذلك أنهم أغاروا على قافلة من فقهاء المغرب من غير سبب وتجردوا لكل نهب وسلب يخطون في ذلك خبط عشواء ويتبعون فيما هنالك التسويلات والأهواء، فلما رأيت ما هنالك، وتبين لي أن منبع ذلك من كبيرهم حماد، أمرت أولمدن بالإغارة عليه وإهانتة ليكفّ عما هو عليه من الحرابة، فلما أغاروا على غيره من قومه وجيرانه رددت عليهم أموالهم حتى الحبال كما سيخبرهم به. الوارد عليكم فلما رجعنا من ناحية تنبكت بعد الإغارة على بنيه تعرض بعض قومه مستشفعين في رد أبله فرددتها عليهم بعدما أخذت عليهم العهود والمواثيق على الكف والأخذ على أيدي أبنائهم وسفهاءهم فلم يفوا بشيء من ذلك بل قال عامة سفهاءهم لا قوة لي ولا عون سوى أولمدن وأنهم متى ذهبوا ورجعوا إلى أهلهم فعلوا ما سؤلت لهم أنفسهم وزينته شياطينهم وتعاقدوا على ذلك فلما حققت ذلك بعثت إلى من بعثت إليه من كناتة لأريهم أنهم لا قوة لهم على ما هموا به وسولته أنفسهم فلما اجتمعوا على إذ بعركل انتصر إذ بعرار الحجل. فكففت الناس عنهم بند القدرة عليهم رجاء ثواب الله العظيم وتحرجاً عن أخذ أموالهم وسفك دمائهم فجاءني من كان يزعم التحزب منهم يتلطف ويدفع بالراج فقبلت ذلك منهم على أن يكفوا على الواردين والمسافرين ويراجعوا ما كانوا عليه من المسكنة وترك الحرابة فتحملوا ذلك والتزموا ما هنالك وإنما كررت طلب الخير منهم مع جنایاتهم وعدم وفائهم أخذاً للحجة عليهم وليكون ذلك معذرة إلى الله تعالى يوم القيامة؟ ولقد ورد عليّ كتاب من بعض صلحائهم أنهم نكثوا أيضاً في الرابعة لأن جميع من ينسب إلى الصلاح منهم معه حبلاً ومودة ومناصحة وقليل ملهم، ومن سواهم متعصب ما لم يخف فإذا خيفوا تبرأ بعضهم من بعض واعلموا أن كل تشغايين وكل تكنكنت وأكلاد البحر غزوا لآدم إلى آخر إملاء الواقعة ثم قال: «فلا تسمعوا قول واشٍ ولا ساعٍ

بخداع فإن القوم قد غشت قلوبهم ظلمات الفتنة، والهوى والحسد والمكر ولا يحقق المكر السيء إلا بأهله» وقد استحلوا الكذب والبهتان جرأة على الله تعالى وجعلوا الظلم رباً ومفخراً مع ضعفهم وأصفق على ذلك عربهم وعجمهم وأشدّهم في ذلك من يدّعي العلم زيغاً وسفهاً وغيرةً بالله وجهلاً بأحكام الله وسنة رسول الله. قال تعالى «الا لعنة الله على الظالمين» وقال «ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون» وقال «أنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها» وقال «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون». وقال صلى الله عليه وسلم «الظالم أحق أن يحمل عليه» وقال «رحم الله عبداً كان لأخيه قبله مظلمة من عرض أو مال فأتاه فتحلله قبل أن يأتي يوم القيامة وليس عنده دينار ولا درهم» وقال «من اقتطع حق امرئ مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة» قال رجل: ولو كان شيئاً يسيراً يا رسول الله؟ قال «ولو كان قضيباً من أراك» وقال «أوحى الله إليّ يا أخا المرسلين أنذر قومك فلا يدخلون بيتاً من بيوتي وعند أحد منهم مظلمة من عبادي وعند أحد منهم مظلمة لعبادي فإنني ألعنه ما دام يصلي بين يدي حتى يرد تلك المظلمة إلى أهلها» وقال الشاعر:

ولو بقي جبل يوماً على جبل لاندكّ منه أعاليه وأسفله

وفي المثل: «من طال عدوانه زال سلطانه»، وقال معاوية إنني لأستحيي أن أظلم من لا يجد عليّ ناصراً إلا الله. وقال أبو العيّن كان لي خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن داود فقلت له قد تظاهروا عليّ وصاروا يداً واحدة فقال: يد الله فوق أيديهم. فقلت إن لهم مكرراً. قال لا يحقق المكر السيء إلا بأهله فقلت هم كثير قال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. وقال بعض الحكماء: أذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك ولا يعجبك رحب الذارعين السفاك للدماء فإن له قاتلاً لا يموت، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي يرويه عن ربه قال: «اشتد غضبي على من ظلم من لا ناصر له غيري».

ولقد عالجت القوم أشد المعالجة لأنني عالجتهم بالإحسان إليهم فلما لم يجد أمسكت ثم عالجتهم بالأعضاء والصفح عنهم فلم يجد فعالجتهم بالتهديد مع الإمساك بعد القدرة عليهم فلما لم يجد فررت منهم لأن الفرار من ثوران الفتى واجب، قال الشاعر:

إذا شاع في أرض فساد ومنكر وليس بها ناه مطاع وزاجر
ففرّ ولا تقم بساحة بلدة يموت بها عرف وتحى المناكر
فإن عقاب الذنب عند جفائه يخص وإن يظهر يعمم فالمحاور

والله يعلم نيتي فيهم وفي غيرهم خير العقوبة لهم، والعفو عنهم فإني لا أريد بالجميع إلا الإصلاح ما استطعت قال الله تعالى: «فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» ومن ذلك القاعدة الشرعية أنه يجوز قتل الثلث لإصلاح الثلثين وكذلك العقوبة المالية إذا جرت إلى كف المعتدين كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بتقطيع نخل بني قريظة حتى قالوا يا محمد تنهى عن الفساد في الأرض وتفسد فيها بنفسك فوقع في قلوب الناس شيء من قولهم فأنزل الله تعالى قوله: «ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله» إلى غير ذلك من القواعد الشرعية التي لا يشم رائحتها إلا سماسة العلماء. ولذلك جعل حركات العلماء وسكناتهم كلها عبادة لأنها مبنية على حق وحقيقة بخلاف الجاهل فإن عبادته جنائية لخلوها عن التحقيق إذ ربما ظن المنكر معروفاً فأمر به وظن المعروف منكراً فنهى عنه، فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه وتمنى على الله الأمانة؟ وإياكم أن يختلج في قلوبكم غير هذا، فإني بلغني أن يعني المنافقين وشيء إليكم ببعض التمويهات في إذلال حماد وبنية غرة وحسداً فلا تزكوا من جرحه الله وكذبه بقوله «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا» فالنميمة على قسمين: سعاية، وهي ما كان إلى الأمراء على وجه الفساد في أخذ مال مسلم أو هتك حرمة، والنميمة إنماء الحديث بين المتحايين لإيقاع الفرقة

والشحناء وصاحبها وهو القنات، روي أن رجلاً سعى إلى بلال بن أبي بردة برجل وكان أمير البصرة، فقال له: انصرف حتى اكشف عنك فكشف عنه فإذا هو ولد الزنا. روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا بلى: قال النمامون المفسدون الأحبة الباغون البرك العيب وقال ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين، ملعون كل شفار ملعون كل فتات» وأما السعاية إلى السلطان فهي المهلكة الحالقة لما فيها من التغرير بالنفوس والأموال. لأنها تسلب العزيز عزه وتحك المكين عن مكانته، وللسيد عن مرتبته فكم دم أراقه سعي ساع فليثق الله ربه رجل ساعدته الأقدار، يصغي إلى سعاية ساع أو يستمع لنميمة نمام، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «شر الناس النمام ومصدق شر منه» روي أن رجلاً كتب إلى صاحب بن عباد بطاقة يستحثه فيها على أخذ مال يتيم وكان مالا كثيراً وأجراً فكتب على ظهر البطاقة النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة فالميت رحمه الله والساعي لعنه الله واليتيم جبره الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقال بعض الحكماء احذر أعداء العقول ولصوص المودات وهم السعاة والناممون إذا سرق اللصوص المتاع سرفوا هم المودات، وفي المثل: من أطاع الواشي ضيع الصديق وكل ذي نعمة محسود وكل واش كذوب، وكل منافق طعان لعان والثقة بمن لا دين له تغرير، واتهام ذي الدين حوب كبير وتصديق الكذوب زيغ وتكذيب الصدوق الحاد والدين صدق نصيحة والنفاق كذب وخديعة ومن لا أمانة له فلا تأمنه ومن لا نصيحة له فلا تستأمنه ومن سل سيف البغي قتل به، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن داهى في الحق هان ومن لم يتدبر عواقب الأمور لان، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ومن يتوكل على غيره ضاع كسبه.

روي أن معاوية كلم الأحنف بن قيس في شيء بلغه عنه، فأنكره

الأحنف فقال معاوية: بلغه عنك الثقة فقال له الأحنف: إن الثقة لا يبلغ، وكان الفضيل بن سهل يكره السعاية وإذا أتاه ساع قال له إن صدقتنا أبغضناك وإن كذبتنا عاقبناك وإن استقلتنا أفلناك. وكتب في جواب كتاب ساع نحن نرى قبول السعاية أشد من السعاية لأن السعاية دلالة والقبول إجازة وليحسن من دل على شيء وأخبره عمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي فإنه لو كان في سعائته صادقاً لكان في صدقه لئيماً إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر العورة، وقال المأمون النميمة لا تتصل بمودة إلا أفسدتها ولا عداوة إلا جددتها ولا جماعة إلا بددتها، ثم لا بد لمن عرف بها ونسب إليها أن يجتنب وتخاف معرفته ولا يوثق به في أمر.

قال الشاعر:

من نم في الناس لم تؤمن عقاربه على الصديق ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل بالليل لا يدري به أحد من أين جاء ولا من أين يأتيه
الويل للعمد منه كيف ينقضه والويل للود منه كيف يفنيه

واعلم يا كاوي إني وفيت لك بما عاهدتك عليه من ترك الدعاء على ابن رحال زعماً منك أنك تكفه وتتولى منانه، وانه قد اشتغل بالخداع والتحليق في سلب الساكينة ولآدم النازلين علينا والله يخذله ويجعل كيده في نحره إذ تركهم لنا من هو أولى منه بهم وأقوى منه وأشد شركة من يغربه من يغرمه ويأخذ على رقبته المكوس وهم أولاد امبارك، فإن وفيت بما قلت فأنت وذاك وإن نكثت رفعنا أمرنا إلى الله فيما عودنا إليه وعلى غيره من النصر والظفر فإني لست بعاجز ولا كسلان ولا من تعود الضيم وخفارة الجار والمستجير فاستكن لذلك قال الشاعر:

إن الكريم يحلم ما لم يربن من أجاره قد أهينا
واعلموا أن حفظ الجار وحماية الذمار أمر واجب على الكرام دون اللئام وكانت العرب ترى ذلك ديناً تدعو إليه، وحقاً واجباً تحافظ عليه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن حلف الجاهلية لم يزد الإسلام إلا تأكيداً قال الله تعالى «واوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً» وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار يقول: يا هذا إنك اخترتني جاراً، واخترت داري داراً فجناية يدك علي دونك وإن جنت عليك يد فاحتكم احتكام الصبي في أهله، وكان الفرزدق بعبير أبيه غالب بن صعصعة. وفي ذلك المعنى يقول الشاعر:

هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل
ورأى أن رجلاً شيعياً كان يسعى في فساد الدولة العباسية فجعل المهدي لمن دل عليه أو أتى به ألف درهم فأخذه رجل ببغداد فيئس من نفسه فمر به على معن، فقال يا أبا الوليد فأخذه منه كرهاً وأردفه بعضهم خلفه فذهب الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدي بالقصة فأرسل خلفه من يحضره، فأحضره فلما دخل عليه قال يا معن أتجير علي؟ فقال نعم: يا أمير المؤمنين قتلت في طاعتك يوماً واحداً خمسة آلاف فما أملك أن أجير رجلاً واحداً استجارني، فاستحى المهدي وأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وقال: قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد. قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يحبو جاره فيكون قد أحياه وأغناه، قال قد أمرت له بخمسين ألف درهم، قال معن ينبغي أن تكون صلوات الخلفاء على قدر جنایات الرعية وإن ذنب الرجل عظيم قال الخليفة قد أمرت له بمائة ألف درهم، فرجع معن إلى منزله ودعا الرجل ودفع إليه المال ووعظه وقال له لا تتعرض لمساخط الخلفاء. وروى أن الجراد سقط قريبا من بيت ابن أبي حنبل فجاء الحي فقالوا: نريد جارك فقال أما إذ جعلتموه جاري فوالله لا تصلون إليه، فسَمِّي مجير الجراد، وهؤلاء القوم قد استجاروا بالله أولاً ثم بي وبك ثانياً. وقد خفر جوارنا رعا من الناس قد تحزبوا حسداً وبغياً، وقد تحزبوا على ذلك تحزب الخشاش، وتألَّبوا تألَّب الفراش أن عاينوا خوفاً إذا بعروا وأن أنسوا أمنا اشمخروا ليس لعائهم دواء إلا التنكيل الممض والتشريد الملظ:

قال الشاعر:

لكل داءٍ دَوَاءٌ يَسْتَطِيبُ بِهِ إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدٍ
وَأَنْتُمْ الْأَعْوَانُ وَالْأَخْوَانُ وَالْأَبْنَاءُ وَهُمْ الْأَضْدَادُ وَالشَّنَاءُ وَالْأَعْدَاءُ.

وقال الشاعر:

إِذَا كَانَ أَعْدَاءُ عَلِيٍّ تَنَاصَرُوا فَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ تَخَاذُلِ أَخْوَانٍ
فَإِنْ أَظْهَرْتُمْ لَهُمْ ذِبَابَ السَّيْفِ كَفَوْا عَنْ الْحَيْفِ فَرَجَعْتَ كُلَّ خَارِجَةٍ
إِلَى جَحْرِهَا وَأَقْرَتَ بِعَجْزِهَا وَقَدَرَهَا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أَنْاسٍ مَشْرِبَهُمْ فَهَرَبُوا
مَهْرِبَهُمْ وَإِلَّا فَسَيَجْرِي مَا أَرَى إِلَى هَذَا هَذَا يَشِيبُ لَهَوْلِهَا الرُّضِيعُ وَيَتَمَطَّعُ
بَسَبِّهَا الصَّرِيعُ فَالْخَرَقُ يَرْقَعُ قَبْلَ الْإِتْسَاعِ وَالشَّيْءُ إِنَّمَا يَحْفَظُ قَبْلَ الضِّيَاعِ
وَاللَّئِيمُ لَا يَكْفُ إِلَّا بِالْإِهَانَةِ وَالْكَرِيمُ يَكْفُ بِالْإِجْلَالِ وَالْمَلَايِنَةُ وَلِيَكُنْ فِي
عِلْمِكَ يَا كَاوِي أَنَّهُ لَا لِكَلْبٍ غَيْرِكَ يَنْبَحُ عَنْ غَنَمِي الذَّنَابُ وَقَدْ تَكَارَوْا مِنْ
كُلِّ جَانِبٍ حَسِداً وَعَدْوَاناً وَبَغِيّاً وَطَغِيَاناً.

قال الشاعر:

تَعْدُو الذَّنَابُ عَلَى مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ وَتَتَّقِي مَرِيطَ الْمُسْتَأْسَدِ الضَّارِي
وَأَرْجُو مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَشْتَتَ شَمْلَهُمْ، وَيَفَرِّقَ جَمْعَهُمْ، قَالَ الرَّسُولُ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَسُودُ لَا يَسُودُ»، وَقَالَ: «قَاتِلِ اللَّهَ الْحَسِدَ مَا
أَعْدَلَهُ بَدَأَ بِصَاحِبِهِ فَقَتَلَهُ»، وَقَالَ: «اسْتَعِينُوا عَلَى أُمُورِكُمْ بِالْكَتْمَانِ فَإِنْ كُلَّ
ذِي نِعْمَةٍ مُحْسُودٍ»، وَقَالَ: «الْحَاسِدُ مَغْتَاطٌ عَلَى مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»، وَفِي
الْحِكْمِ: «الْحَسُودُ غَضَبَانٌ عَلَى الْقَدْرِ». رَوَى أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْبَادِيَةِ دَخَلَ
عَلَى الْمَعْتَصِمِ وَقَرَّبَهُ وَجَعَلَهُ نَدِيمَهُ فَنَفَسَ وَزِيرُ الْخَلِيفَةِ الْبَدَوِيُّ ذَلِكَ
فَحَسَدَهُ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ إِنْ لَمْ أَقْتُلْ هَذَا الْبَدَوِيَّ أَخَذَ بِقَلْبِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
حَتَّى يَبْعِدَنِي مِنْهُ، فَصَارَ يَتَلَطَّفُ بِالْبَدَوِيِّ حَتَّى أَتَى بِهِ مَنْزِلَهُ، فَطَبَخَ لَهُ طَعَامًا
فَأَكْثَرَ فِيهِ مِنَ الثُّومِ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْأَمِيرِ فِي فُورِهِ، فَقَالَ: إِنْ هَذَا الْبَدَوِيُّ
يَزْعَمُ أَنَّكَ بَخْرٌ وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا دَخَلَ عَلَيْكَ جَعَلَ طَرَفَ رِدَائِهِ عَلَى فَمِهِ

مخافة أن يشم الأمير منه رائحة الثوم، فلما رأى الأمير منه ذلك، قال في نفسه: لقد صدقني الوزير فكتب الأمير إلى بعض عماله كتاباً يقول فيه، إذا وصلك حامل كتابي هذا فاضرب عنقه، ثم دعا بالبدوي فدفن إليه الكتاب، وقال امض به إلى فلان وائتني بالجواب، فأخذ البدوي الكتاب وخرج فلما كان خارج باب الأمير لقيه الوزير فقال: إلى أين تريد؟ قال وجهني الأمير بكتاب إلى عامله الفلاني. فقال الوزير في نفسه: إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال كثير، فقال: يا بدوي ما تقول فيمن يريحك مما يلحقك من التعب في سفرك ويعطيك ألفي دينار؟ قال: البدوي أنت الكبير وأنت الحكيم ورأيي تبع لرأيك فناولته ألفين وتناول الكتاب من يده فركب الوزير من ساعته وسار بالكتاب. فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب عنق الوزير، فبعد أيام تفكر الأمير في أمر البدوي فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي فقال: ما شأنك يا بدوي؟ فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير، فقال له الخليفة: أقلت فيّ أني أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لي به علم، وإنما كان ذلك منه مكرراً وخداعاً، وقصص عليه إدخاله إياه منزله، ثم خلع على البدوي واتخذته وزيراً، وفي مثل هذا يقول الشاعر:

أيا حاسداً لي على نعمة	أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه	لأنك لم ترض لي ما وهب
فجازاك أن زادني في العطا	وأغلق دونك باب الطلب

وقال غيره:

أصبر على قتل الحسو	د فان صبرك قاتله
--------------------	------------------

وقال غيره:

يا طالب العيش في أمن وفي دعة	رغداً بلا قتر صفواً بلا أرق
خلص فؤادك من غلٍّ ومن حسد	فالغلّ في القلب مثل الغلّ في العنق

وقال الشاعر في آل المهلب:

آل المَهْلَب قوم إن مَدَحْتَهُمْ كانوا الأَكْرامِ آبَاءً وأجدادا
إن العرانيين تلقاها مُحَسَّدَةً ولا ترى للئام الناس حسادا

وقال منصور الفقيه:

منافسة الفتى فيما يزول على نقصان همته دليل
ومختار القليل أقل منه وكل فوائد الدنيا قليل

ولما حسد أخوة يوسف، عليه السلام آل أمره إلى ما آل إليه من الملك الشامخ والعزّ الباذخ والاصطفاء والنبوة، فساقهم الله إليه من كنعان أذلة عالة ليحكم فيهم بما شاء وكيف شاء فامتحنهم ثم عفى عنهم عندما أقروا له بالفضل واعترفوا بالخطأ فقالوا: تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين، ولما رأيت القوم لم يكفوا بالإحسان إليهم والحلم بعد الجرم عاملتهم بطرف من الجهل فكان ذلك أردّ لصولتهم وأكسّر لشوكتهم معتمداً على الله تعالى ومستنداً إلى قوله تعالى «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» فلم أعتد بالمثل تغليباً لجانب العفو، وقال الله تعالى لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم. قال القاضي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمان بن خلاد ليس الحلم في كل المواطن محموداً كما أنه ليس الجهل في كل الأحوال مذموماً.

وأنشدوا في المعنى:

أبا حَسَنِ ما أَقْبَحَ الجهلَ بالفتى والحِلْمُ في بعض الأَخايِنِ أَقْبَحُ
إذا كان حلْمُ المرءِ عونَ عدوة عليه فإن الجهل أغنى وأروح
وفي الحلم ضَعْفٌ والعقوبةُ قوة إذا كنت تخشى كَيْدَ مَنْ عنه تصفح

وقال آخر:

لن يدركَ المجدَ أقوامٌ وإن كرموا حتى يذلوا وإن عَزَّوا لأقوام
فيصفحوا فترى الألوان مصفرةً لا صفحَ ذل ولكن صفحَ أحلام

وإن دعا الجار لبوا عند دعوته في النائبات باسراج والجام
وقال النابغة الجعدي وهو مما أنشده النبي صلى الله عليه وسلم
فاستحسنه:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له	حليم إذا ما أورد الأمر إصدار
إذا كنت بين الحلم والجهل قائماً	وخيّرت أياً شئت فالحلم أفضل
ولكن إذا أنصفت من ليس منصفاً	ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثل
إذا جاءني من يسئل الجهل عامداً	فإني سأعطيه الذي جاء يسأل
ولم أُعطِه إياه إلا لأنه	وإن كان مكروهاً من الذل أجمل

وقال آخر:

أولئك قومي بارك الله فيهم على كل حال ما أعف واکرما
وقال المفضل الضبي:

تعفو الملوک عن العظيـ	م من الذنوب لعضلها
ولقد تعاقب باليسير	وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف حلمها	ويخاف شدة نكلها

هذا الزمان أكثر أهله: هدامون على كل بناء، رمادون على كل شواء:
قال الشاعر:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم
واعلموا أيها الإخوان في الله أنه لا أحد بعد الله أثق به في الحديث
غيركم فجدوا في رد هذه الفتنة قبل استحكامها، واجتهدوا في إطفاء هذه
الجمرة قبل اضطرامها، فإن دفعكم إياها أحمد لِنارها وأدفع لشنارها،
واجعلوا ذلك لله والإخاء فيه لكي تعاونوا على ذلك فإنه ما تصعب أمر
أنت داخله بربك ولا سهل أمر أنت داخله بنفسك ولذلك قال الله تعالى
لنبيّه «وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي
من لدنك سلطاناً نصيراً» وإن القوم متوجهون إليكم بالرشا لهدم ما بنى الله

فياكم وقبولها فتدلونني بها وهي فانية والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً فإن اخترتموني عن كل شيء كنت لكم خلفاً من كل شيء فكأنني المؤنة وأنا لني المعونة قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي يرويه عن ربه «لا يعتمد علي عبد من عبادي أعلم ذلك من نيته فيكيده أهل السموات والأرض إلا جعلت له من ذلك فرجاً ومخرجاً وإنما دعوتكم لهذه النازلة مراعاةً لقوله تعالى و«تعاونوا على البر والتقوى». وقوله صلى الله عليه وسلم «المرء كثير بأخيه» وقوله «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فقال رجل يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال امنعه من الظلم واحجزه عنه فذاك نصْرُه. وفي رواية فليأخذ على يديه.

ومن هذا النمط قول الشاعر:

وَإِذَا يَصِيبُكَ وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ حَدَّثَ حَدَاكَ إِلَى أَخِيكَ الْأَوْثَقِ

وقال آخر:

أَخْوَكَ الَّذِي إِنْ سَرَّكَ الْأَمْرُ سَرَهُ وَإِنْ نَابَ خَطْبُ ظِلٍّ وَهُوَ حَزِينُ
يُقَرِّبُ مَنْ قَرَّبْتَ مِنْ ذِي مَوَدَّةٍ وَيُقْصِي الَّذِي أَقْصَيْتَهُ وَيُهِنُ

وقال علي بن أبي الحوري: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: ليس من علامة الحب أن تحب من يُبَغِضُهُ حبيُّك. وقيل لخالد بن صفوان: أي إخوانك أعجب إليك؟ قال: الذي يغفر زلّتي ويقبل عللي ويُبَلِّغُنِي فِي النَّائِبَاتِ أَمَلِي.

روي أنّ قوماً تذاكروا الأخوة في مجلس عبد الملك بن مروان فذكر كل ما عنده، وهو ساكت، فقالوا له: ما حقيقة الأخوة عندك يا أمير المؤمنين؟

إِنْ أَخَاكَ الْمَصَاحِبُ فِي الْمَرِّ وَأَيْنَ الْمَصَاحِبُ فِي الْمَرِّ أَيْنَا
الَّذِي إِنْ حَضَرَتْ وَأَنْتَ فِي الْحَيِّ وَإِنْ غَبَتْ كَانَ أَدْنَى وَعَيْنَا

وعن جعفر بن محمد بن علي قال:

أوصاني أبي فقال: يا بني لا تصحب خمسة ولا تجالسهم، لا تصحب فاسقاً، فإنه بئعك بأكلة فما دونها، قلت يا أبت فما دونها؟ قال الطمع فيها فلا ينالها، قلت يا أبت فمن الثاني؟ قال لا تصحب خبياً فإنه يقطعك أحوج ما تكون إليه، قلت يا أبت فمن الثالث؟ قال لا تصحب كذاباً فإنه بمنزلة السراب يقرب لك البعيد ويبعد لك القريب، قلت يا أبت فمن الرابع؟ قال: لا تصحب أحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك، قلت يا أبت فمن الخامس؟ قال لا تصحب قاطع رحم فإني وجدته ملعوناً في ثلاثة مواضع من كتاب الله في الذين كفروا وفي البقرة والرعد، والمعتبر في الأخوة أخوة الدين لا أخوة الطين. قال الله تعالى «إنما المؤمنون أخوة» وفي المثل: «الصديق الموافق خير من الشقيق المنافق». وقالوا جعل الله في الصديق البار عوضاً عن الرحم قال الشاعر:

وكم من بعيد صادق الود مخلص	وذي رحم القرابة قاطع
تمسك بحبل المطمع الوصل واحترس	وصال سواه من قريب وشاسع

وقال الشاعر:

أخو ثقة يسرّ بحسن حالي	وإن لم تُدِنني منه قرابة
أحبّ إليّ من ألفي قريب	بنات صدورهم فيها حرايه

وقال آخر:

كيف أجفو من غدي تعرّفت منه	خلفاً بارعاً ووداً كريماً
لم أقايس به الإخلاء إلّا	كان عند حميدهم مذموماً

واعلم يا كاوي أنك عرّفتني مواعد حسنة فإنّ وفّيت بها فقد أمطر فرنك وذهب حزنك وهي قولك كل من جاء من أهل القبلة فهو نازل وقد أعطيته لي فلا ينازع فيه منازع الثاني إعطاؤك الموائيق لي أنك لا تخالف لي أمراً ما عشت، الثالث أنك لا تبدلني بمال، ولو بلغ من البحر المالح

إلى ملك الدنيا تريد العثماني وقد حفظتها عليك فأحصيتها والناس مقبلون عليك على أن تنفض جميع ذلك وهم منافقون كَذَبَةُ فَيَاكَ أَنْ تطيعهم في ذرة من ذلك فيكون برُّك خُلْبَاءَ، وعهدك خلفاً، وأنا في جميع ذلك متوكل على الله وكفى به وكيلاً ثم إن العاقل الكريم يفتح به نقض العهد ولو كان المعاهد كافراً. وروي أن سبب الوفاء العقل الوافر والعرض الكامل، وعن عامر بن قيس قال: إذا عقلك عَقْلُكَ عَمَّا لَا ينبغي فأنت عاقل وإن العلماء مثّلوا العقل فجعلوا له جوارح كجوارح الجسد ففمه وعينه البراءة من الحقد والحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وقلبه صحة النية، ويده الرحمة، وقدمه السلامة من الغش، وسلطانه العدل، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلام، وسيفه الرضا، ورمحه المصالحة، وسهمه التحبب، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الْعِدَّةُ دِينٌ، وَوَيْلٌ لِمَنْ وَعَدَ ثُمَّ أَخْلَفَ» قالها ثلاثاً. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَا تَمَارِ أَخَاكَ وَلَا تَمَازَحْهُ وَلَا تَعِدْهُ مَوْعِدًا تُخْلِفُهُ فَيَكُونَ قَطِيعَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ». ومن حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ تَدُومَ لَهُ مَوَدَّةُ أَخِيهِ فَلَا يَعِدْهُ مَوْعِدًا فَيُخْلِفُهُ» ومن حديث أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تَحْمِلُوا إِلَى بَسْتٍ أَتَحْمِلُ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ» قالوا: وما هي يا رسول الله؟ «إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلَا يَكْذِبْ، وَإِذَا وَعَدَ فَلَا يَخْلِفْ وَإِذَا أَوْثَمَنَ فَلَا يَخُنْ وَغَضُوا أَبْصَارَكُمْ وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ وَكَفُوا أَيْدِيَكُمْ». ومن حديث علي بن موسى الرضا قال حدثني أبي عن أبيه عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من عامل الناس ولم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو مَنْ كَمُلَتْ مَرْوَتُهُ وَظَهَرَتْ عَدَالَتُهُ، وَوَجِبَتْ أَخَوَاتُهُ وَحُرِّمَتْ غَيْبَتُهُ. ومن حديث الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ثلاث من كنَّ فيه: فهو منافق، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: «مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أَوْثَمَنَ خَانَ».

ونظم بعضهم في المعنى فقال:

وإذا منعتُ منعتُ منعاً بينا	وأرحتُ من طول العناء الراغبا
وإذا وعدتُ الوعد كنتُ كغارم	ديناً أقرُّ به وأحضرُ كاتباً
حتى أنفذه على ما قلته	وكفى عليك به لنفسك طالباً

ولما مدح الله نبياً من أنبيائه قال «إنه صادق الوعد» وكان يقال آفة المروءة خُلْفُ الوعد، وكان إبراهيم بن يسار أوفى خُلْفَ الله بعدة قال له إنسان مرة انتظرني حتى آتيك، فقال إليّ أمّا أن تجيء فلا، ولكن أنتظرُك إلى العشاء مخافة أن يخلف الوعد. روي أن عبد الله بزعم وعد رجلاً أن يزوجه ابنته ثم تمادى به الأمر حتى حضره الموت فبعث إليه فزوجه، وقال كرهت أن ألقى الله بثلاث النفاق وقال بعض الحكماء: المواعيد سحاب والمطر الوفاء بها، وكان عليّ يقول خير المقال ما صدقه الفعال، وقال: «ليس في البرق اللامع مستمتع لمن يخوض الظلمة ما أحسن المقال إذا صدقه الفعال».

وقد أنشدوا فقالوا:

يقول فيحسن القول ابن ليلي ويفعل فوق أحسن ما يقول

وقال أحنف بن قيس خير الصنائع إنجاز وعد، ووفاء بعهد وقال يحيى بن خالد: المواعيد شبكة من شباك الكرام يصطادون بها محامد الأحرار، وقال المثنى بن حارثة لأن أموت عطشاً أحب إليّ من أن أخلف وعداً وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: لا تعبدوا الناس بما لا تنالهُ أيديكم فإن اليأس إحدى الراحيتين، وقال جعفر: إن محمد اعتذر من منع أجمل من وعد ممطول، وكان يقول: وعد الكريم نفذ وتعجيل، ووعد اللئيم منع وتسويق، وروي عن بعض الحكماء أنه قال: الوعد نافلة والانجاز فريضة فلا تفرض على نفسك فريضة وعد لا تنوي إنجازها، فيعود ما طلبت من المحمدة مذمة، ومن المصافاة ملاحاة، وعن الحسن فضل الفعال على

الكلام مكرمة. وفضل الكلام على الفعال عار.

وأنشدوا:

إن المُعلَّى بن أيوبٍ له شرفٌ ما زال يرفعُ أحياناً فترتفعُ
إن قال افعل شيئاً فهو فاعله أو قال: لا. لم يكن في غيرها طمع
واعلموا أنه لا أقيم على الضيم.

قال الشاعر:

ولا يقيم بدار الذلِّ يألفها إلا الاذلان عبد الحي والوتد
هذا على الهون مربوط برمته وذا يُشجُّ فلا يرثي له أحد
وقال صالح بن عبد القدوس:

وإذ رأيت الرزق عزَّ ببلدة وخشيتُ فيها أن يضيق المذهبُ
فارحل فأرض الله واسعةً الفضا طولاً وعرضاً شرقها والمغرب

وقال غيره:

بلؤمئتي أن بعثُ بالرُّخصِ منزلي ولم يعلموا جارا هناك يُنغصُ
فقلت كفوا الملام فإنما بجيرانها تغلو الديار وترخصُ

وقال الله تعالى «ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة». وقال صلى الله عليه وسلم: «الهجرة لا تنقطع إلى يوم القيامة» وليس بين هذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم «لا هجرة بعد الفتح» تناقض. فقد قال ابن الصلاح معناه لا هجرة واجبة على أصحابه حينئذ لتغلبهم على الكفرة وأمنهم الفتنة كما قال الله لهم «قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله» فقد وقع ذلك في آخر دولته صلى الله عليه وسلم وبتمام دولة الشيخين فإذا ثارت الفتنة وجبت الهجرة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم تعالى المسؤول في إنجاز السؤل وبلوغ المأمول وهو حسبنا ونعم الوكيل والسلام عليكم لا يحول ولا يزول.